

المسؤولية

عناصر الموضوع

٣٩٢	مفهوم المسؤولية
٣٩٤	الألفاظ ذات الصلة
٣٩٥	السائل
٤١٢	المسؤول
٤٢٦	المسؤول عنه
٤٤٥	غير المسؤول عنه
٤٥١	أثر فقه المسؤولية على سلوك العبد

مفهوم المسؤولية

أولاً: المعنى اللغوي:

لم يرد لفظ مسؤولية في القرآن ولا السنة، ولا معاجم اللغة القديمة، بهذه الصيغة الصرفية أعني صيغة المصدر الصناعي، والكلمات التي وجدت على هذه الصيغة فهي قليلة لا تتعدى بضع عشرات؛ منها: جاهلية، عبقرية، فروسية، عبودية، وحدانية.

كلمة مسؤولية إذا كلمة معاصرة، مشتقة قياساً على المصدر الصناعي من (مسؤول). والمسؤول في الأصل: المستدعي منه معرفة أو ما يؤدي إلى المعرفة، أو المستدعي منه مال أو ما يؤدي إلى المال، قال ابن فارس: السين والهمزة واللام كلمة واحدة، يقال: سأل يسأل سؤالاً ومسألة^(١).

ويدور معنى السؤال في اللغة على معنى استدعاء المعرفة أو ما يؤدي إلى المعرفة، أو استدعاء مال أو ما يؤدي إلى المال، والسؤال للمعرفة قد يكون للاستعلام وقد يكون للتبكيث؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨]^(٢).

ومن المعاني التي تناولتها المعاجم وكتب التفسير للفظ (مسؤول)، الآتي:

- ✽ مطلوب^(٣). ومحاسب^(٤). وفي قوله تعالى: ﴿وَقَفُوهُرَّائِبًا مَسْئُولُونَ﴾ [الصفات: ٢٤] أي: مطلوبون للحساب^(٥). قال الطاهر بن عاشور: المسؤول كناية عن المحاسب عليه^(٦).
- ✽ أن يكون الإنسان سبباً في شيء يستحق عليه اللوم.
- ✽ صاحب المنصب الرفيع.

فمعنى المسؤول إذا يدور حول: المطلوب-معرفة أو مالاً-، المحاسب، الكناية عن المحاسب عليه، وصاحب المنصب الرفيع.

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

تناول القانونيون والإداريون والسياسيون وغيرهم لفظ المسؤولية كمصطلح، ومن هذه التعريفات الاصطلاحية الآتي:

- (١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ١٢٤.
- (٢) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٤٣٧.
- (٣) المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٩٧.
- (٤) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، ٢/ ١٠٢٠.
- (٥) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار، ٢/ ١٠٢٠.
- (٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢١/ ٢٨٩.

- ❁ الالتزام بإصلاح الخطأ الواقع على الغير طبقاً لقانون^(١).
 - ❁ واجب الأداء بالطريقة المطلوبة، أو تحقيق أهداف معينة.
 - ❁ واجب القيام بمهمة معينة.
 - ❁ المحاسبة عن نتائج تم الالتزام بها^(٢).
 - ❁ الالتزام بواجب يحاسب عليه الفرد، كمسؤولية الموظف عن عمله^(٣).
- خلاصة القول في المعنى الاصطلاحي هي أن المسؤولية: حالة قائمة بالإنسان نشأت عن تكليف أو تعهد، قد يتعرض بسببها للسؤال المقصود به المحاسبة والمفضي للجزاء.

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١/ ٨٥٣.

(٢) الإدارة، سيد الهواري، ص ٢١١.

(٣) معجم مصطلحات العلوم الإدارية، أحمد زكي بدوي، ص ٣٤٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ الأمانة:

الأمانة لغة:

ضد الخيانة، كما في مختار الصحاح^(١). وهي مصدر مشتق من مادة (أمن) قال في اللسان: «(أمن) الأمان والأمانة بمعنى»^(٢). يقال: أمن: أمنا وأمانا وأمانة وإمنا وأمنة، بمعنى: اطمأن ولم يخف، فهو آمن وأمن وأمين^(٣).

الأمانة اصطلاحًا:

عرفها الكفوي بقوله: «كل ما افترض على العباد فهو أمانة، كصلاة وزكاة وصيام وأداء دين، وأوكدها الودائع، وأوكد الودائع كتم الأسرار»^(٤). وقيل: صيانة الإنسان لكل ما ينبغي صيانته من حقوق، أو فروض، أو واجبات، أو حدود، أو أشياء مادية، أو معنوية، سواء كانت لله تعالى، أم لأبناء المجتمع.

الصلة بين الأمانة والمسؤولية:

المسؤولية ترادف الأمانة والولاية والتكليف والالتزام والتعهد، وبين المسؤولية والأمانة علاقة لزوم، فالأمانة والرعاية من أساليب أداء المسؤولية.

٢ الخيانة:

الخيانة لغة:

الاحتيال والخداع. فالخيانة خلاف الأمانة^(٥).

الخيانة اصطلاحًا:

«مخالفة الحق بنقض العهد في السر»^(٦).

الصلة بين الخيانة والمسؤولية:

الخيانة من المعاني المضادة للمسؤولية.

(١) مختار الصحاح، الرازي ص ٢٦.

(٢) لسان العرب، ابن منظور ١٣ / ٢١.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١ / ٢٨.

(٤) الكليات، الكفوي ص ١٨٧.

(٥) انظر: المغرب في ترتيب المعرب، الخوارزمي ص ١٥٦.

(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٠٥.

الجنة بغير حساب^(١).

ولا تنافي بين ثبوت سؤال الكفار هنا، ونفيه في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].
وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ وَلَا جُنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٣٩].

فنفي السؤال إنما كان عن الذنب، وذلك بعد استقرار الكفار والمجرمين في العذاب^(٢). وتفصيل ذلك في مبحث (المسؤول)، مطلب (الكافرون).

ومن الآيات القرآنية الدالة كذلك على عموم سؤال الثقلين، قوله سبحانه: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

قال أبو جعفر الطبري: يقول تعالى ذكره: فلنخبرن الرسل ومن أرسلتهم إليه بيقين علم بما عملوا في الدنيا فيما كنت أمرتهم به، وما كنت نهيتهم عنه وما كنا غائبين عنهم وعن أفعالهم التي كانوا يفعلونها، فذلك من الله مسألة للرسل على وجه الاستشهاد لهم على من أرسلوا إليه من الأمم، وللمرسل إليهم عموماً على وجه التقرير والتوبيخ^(٣).

فهذه الآية تدل على عموم سؤاله سبحانه وتعالى خلقه المرسلين والمرسل إليهم أجاوبوا أم كفروا وجحدوا. وأن السؤال عن

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/٦٠.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي، ٧/٢.

(٣) جامع البيان، الطبري، ١٢/٣٠٧-٣٠٨.

السائل

السائل: هو الذي يسأل ويحاسب؛ جاء في قاموس المعاني: سأل يسأل سؤالاً وتسألأ فهو سائل، وسأل فلاناً: حاسبه.

والإشارة إلى الله سبحانه وتعالى بالسائل باعتبار إكمال أركان المسؤولية؛ وهي: السؤال، السائل، المسؤول، والمسؤول عنه. ويدور هذا المبحث حول معنى السائل الذي يسأل ليحاسب لا ليستعلم، وباعتبار أن الله سبحانه وتعالى محاسب خلقه عما عهد إليهم من المسؤوليات. ويتناول موضوع السائل من النواحي التالية: إثبات القرآن سؤال الله سبحانه وتعالى للمكلفين وعمومه، الإشارات القرآنية لاستحقاق الله سبحانه أن يكون سائلاً، موضوع سؤاله سبحانه، خصائص سؤاله سبحانه، ومراتب سؤاله سبحانه.

أولاً: سؤال الله تعالى للمكلفين:

الله سبحانه وتعالى سائل عامة المكلفين من الثقلين - الإنس والجن - عن مسؤولياتهم التي عهد بها إليهم، يشمل ذلك الرسل والمرسل إليهم؛ المؤمن والمنافق والكافر، قال سبحانه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢].

والآية بعمومها تدل على سؤال الجميع ومحاسبتهم كافرهم ومؤمنهم، إلا من دخل

المسؤولية ليس نوعًا واحدًا، بل أنواع عدة، وأن سؤال المؤمنين تقرير، وسؤال الكفار تقييع، والجميع يقص الله عليهم بعلم، فلا استفسار ولا استفهام.

وخلاصة القول الذي دلت عليه الآيات المحكمات أن الله سبحانه وتعالى سيسأل عباده جميعًا ويحاسبهم عن مسؤولياتهم.

ثانيًا: استحقاق الله أن يكون سائلًا:

إن مكانة السائل لا تثبت بمجرد السؤال، بل لابد من جدارة وأحقية للسائل حتى يتسنى هذه المكانة، والقرآن الكريم أشار في كثير من المواطن إلى دلالات استحقاقه سبحانه وتعالى مكانة السائل الذي يعهد بالأمانات والتكليف ويحاسب عليها ويجازي عنها. وهذا من تمام عدله وحكمته سبحانه فهو يعلمهم بمكانته وجدارته واستحقاقه مكانة العاهد المحاسب المجازي ليهيئهم لقبول التكليف، ويمهد لهم السبيل لإتباع أمره هو لا أمر كل جبار عنيد.

ومن أبرز الدلالات القرآنية على ذلك:

١. الربوبية.

أثبت الله تعالى لنفسه الخلق والرزق والتدبير والملك، في كثير من الآيات التي أشار فيها إلى المسؤولية، مما يدل على كون الربوبية من أعظم الإشارات دلالة على كونه سبحانه وتعالى مستحقًا لهذه المكانة كونه

سائلًا عاهدًا بالمسؤوليات ومحاسبًا عليها. ونلاحظ أن القرآن يقرر هذه الدلالة قبل إيجاب الأعمال والعهد بالتكليف أحيانًا، كما قال سبحانه: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ① لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ② هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ③ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِيغُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ④ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ⑤ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⑥ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا

مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ⑦ [الحديد: ١-٧].

فجاء الأمر بالإيمان والإنفاق بعد تقرير ربوبيته سبحانه. وأحيانًا أخرى بعدها، كما

في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ② أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ

أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ③ لَوْ

أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَسْأَلُ سُبْحَانَكَ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ④ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكْوِّرُ اللَّيْلَ

وَالنَّجْمِ الذُّرِّيَّ ⑤ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْكَافِرَةَ ⑥ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْبَرَّةَ ⑦ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الطَّيِّبَةَ ⑧ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ النُّجُومِيَّةَ ⑨ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ⑩ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ⑪ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ⑫ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ⑬ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ⑭ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ⑮ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ⑯ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ⑰ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ⑱ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ⑲ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ⑳ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㉑ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㉒ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㉓ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㉔ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㉕ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㉖ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㉗ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㉘ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㉙ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㉚ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㉛ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㉜ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㉝ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㉞ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㉟ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㊱ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㊲ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㊳ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㊴ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㊵ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㊶ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㊷ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㊸ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㊹ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㊺ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㊻ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㊼ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㊽ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㊾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ㊿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّفْسَ الْوَحِيدَةَ ١٠٠٠

التنزيه، فذكر خلقه وتقديره ورزقه، وهي الدلائل على ربوبيته سبحانه.

فلا بد للسائل من العلو ليستحق إسناد المسؤوليات والمحاسبة عليها، وبدون العلو يكون السؤال سؤال طلب أو استجداء لا يلزم المسؤول جوابه، ولا يقدر السائل أن يؤاخذه به. والعلو الظاهر من الآيات السابقة من سورة الأعلى ناتج عن النعمة والفضل، وقد ضرب الله بها مثلاً: نعمة الخلق والتقدير والرزق، وهو ظاهر كذلك في قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِّي فَاظِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يَطْعَمُهُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَدَ وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

فمن كان كذلك استحق كمال الاستسلام والطاعة؛ قال الرازي: واعلم أن المذكور في صدر الآية هو المنع من اتخاذ غير الله تعالى ولياً. واحتج عليه بأنه فاطر السماوات والأرض وبأنه يطعم ولا يطعم. ومتى كان الأمر كذلك امتنع اتخاذ غيره ولياً^(١).

والآيات في هذا الباب كثيرة جداً. وليس العلو الذي يستحق به السائل مكانته ناتج من الفضل فقط بل هو كذلك ناتج من القهر، كما قال ربنا سبحانه: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ٦/١٤٠.

عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدٍ وَنَمَّ جَعَلَ بَيْنَهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ فَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ اللَّهِ فَمَنْ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَن تَضَرَّوْنَ ﴿٦﴾ [الزمر: ٢-٦].

فجاء الأمر بإخلاص العبادة والدين لله أولاً، ثم جاءت الآيات التالية تقرر صفة الربوبية لله سبحانه بعده.

إن الربوبية هي لازمة استحقاق السؤال والمحاسبة، وقبلها العهد بالمسؤوليات وإيجابها على العباد كونها صفة تدل على الفضل، فإن الذي تفضل بالخلق والرزق والتدبير جدير بأن يطاع أمره وأن يحاسب على عهده وأن ينفذ وعده.

٢. العلو.

إن مكانة السائل تستلزم العلو: علو القدر والمكانة والقهر. والربوبية نفسها لازمها العلو.

قال سبحانه: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غَنَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [الأعلى: ١-٥].

فأله سبحانه أمر بتزيهه سبحانه، وذكره باسمه الأعلى، ثم ذكر دلائل لاستحقاقه هذا

﴿١١﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ ۗ لَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاكِمِينَ ﴿[الأنعام: ٦١-٦٢].

وقال جل من قائل: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۗ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْغَيْبُ﴾ [الأنعام: ١٨].

فالسائل إذا لا بد له من علو القدر والفضل والقهر التي تشير إلى لزوم طاعته والاستسلام لأمره والخضوع له في أمره ونهيه عن استحقاق وجدارة.

٣. العلم.

إن السؤال والمحاسبة تحتاج إلى العلم بعمل المسؤول في مسؤوليته وأمانته، والقرآن الكريم يخبرنا عن سؤال الله سبحانه عباده عن علم كامل وحفظ تام.

قال سبحانه: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْصِنَّ عَلَيْهِمْ يَعْلَمُونَ مَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأعراف: ٦-٧].

ودلل القرآن على كمال علمه سبحانه بأنه تعالى يعلم السر وأخفى ويعلم الغيب بل ويعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون؛ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوبُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩].

وقال سبحانه: ﴿وَاسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ رَرَيْتَ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكُذِّبُ بِحَايَتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُحَقِّقُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٨٥].

٢٧-٢٨].

ولذلك فإن حسابه لخلقه لا يقتصر على أعمالهم الظاهرة فقط بل يشمل الأعمال الباطنة، فالمنافقين ليسوا بمنجاة بإضمارهم الكفر وإظهارهم الإسلام، بل هم متوعدون بالحساب عن حقيقة إيمانهم.

قال سبحانه: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

قال ابن كثير: يخبر تعالى أن له ملك السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن، وأنه المطلع على ما فيهن، لا تخفى عليها الظواهر ولا السرائر والضمائر، وإن دقت وخفيت، وأخبر أنه سيحاسب عباده^(١).

فأما المؤمنون فإن الله يغفر لهم ما حدثتهم به أنفسهم من الإثم ابتداء ما لم يعملوه؛ كما جاء في الحديث الصحيح: (إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست، أو حدثت به أنفسها، ما لم تعمل به، أو تكلم)^(٢).

فإن عملوه فهم تحت المشيئة، وأما

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/٢٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنت ناسياً في الأيمان، رقم ٦١٩٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر، رقم ١٨٥.

لا يخرمان منه شيئاً، فما يتكلم ابن آدم بكلمة إلا ولها من يراقبها معتداً ويكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كُنِينًا ۝١١ يِعْمَلُونَ مَا تَعْمَلُونَ ۝١٢﴾ [الأنفطار: ١٠-١٢] (١). وعن ابن عباس قال: جعل الله على ابن آدم حافظين في الليل، وحافظين في النهار، يحفظان عليه عمله، ويكتبان أثره (٢).

٤. القدرة.

دلت الآيات على قدرة الله سبحانه وتعالى المطلقة، وربطت بينها وبين المسؤولية في كثير من المواضع، حيث بينت:

● قدرته سبحانه على المراقبة والإحصاء: قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ تَحْقُقُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْشِرُوا بِمَا عَلَّمَ اللَّهُ وَيَسْلُمَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩].

● قدرته على جمع المسؤولين وإرجاعهم للحساب: قال سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّئُهَا فَاسْتَغْفِرُوا الذَّنْبَ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨]. وقال سبحانه: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤]. وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ

الكافرون والمنافقون فإنهم متوعدون بالعذاب به. وتمام العلم يحقق التوفية في الحساب والجزاء، وذلك غاية تمام العدل. قال سبحانه: ﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيَوقَيْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [هود: ١١١].

ورغم علمه سبحانه بما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، إلا أنه سبحانه أعمل في خلقه الرقابة والرصد، وكتب لهم أعمالهم كلها، وأشهد عليهم.

قال سبحانه على لسان عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝١٦ إِذْ يَنْفَى التُّفَّيَّانَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ١٦-٢١].

قال ابن كثير: يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه، وعلمه محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر، وأن ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده بإقدار الله لهم على ذلك، فيكتب الملكان المترصدان عن يمين الإنسان وشماله عمله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٣٩٧.
(٢) جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٣٤٠-٣٤٤.

في الكون تصرف المالك ذي السلطان، إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٤٠) [النحل: ٤٠].

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٢) [يس: ٨٢].

وهو في إيجاب المسؤوليات على الخلق قادر على جمعهم للحساب.

قال سبحانه: ﴿وَمِن مَّا يَلِيهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ شَيْءٍ وَإِنَّمَا يَأْمُرُ بِشَيْءٍ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ (٢١) [الشورى: ٢٩].

وهو سبحانه قادر على محاسبتهم جميعاً، سريع في ذلك.

قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْفُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

وقال سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٥١].

وقال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

والله سبحانه قادر على إقامة الشهادة على خلقه من أنفسهم: ﴿الْيَوْمَ نُحْشِرُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٦٥) [يس: ٦٥].

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ يَوْمَ يُخْلَقُ ٥ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ٦ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ٧ إِنَّهُ عَلَى رَجَبِهِ لَقَادِرٌ ٨﴾ [الطارق: ٥-٨].

قدرته على الإتيان بالأشهاد: قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١٩ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٢٠ وَقَالُوا لِيَجْزِيَ اللَّهُ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢١ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ٢٢﴾ [فصلت: ١٩-٢٢].

قدرته على الإثابة والعقاب: قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٤٠]. وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا بَينَ يَدَيْهِمْ أَوْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَوْ يُنَزِّلُ بِهِمْ السَّمَاءَ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ أَوْ يَحْشُرَ فِي أَرْضِهِمْ جُنُودًا يُرْسِلُ فِيهِمْ مَوْتًا وَمَوتًا مُتَّعِينَ بِحَيَاةٍ طَوِيلَةٍ لِقَوْلِهِمْ إِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥].

فالله سبحانه له القدرة التامة، متصرف

لم يكن أصيلاً في استحقاق كونه سائلاً، بل إنه يكون فرعاً، مسنداً إليه السؤال، لكنه غير مستقل ولا بات فيه. والقرآن يخبرنا أن الله سبحانه أصيل في المحاسبة والسؤال، فلا راد لحكمة ولا معترض على قضائه.

قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَلَّهَ بِحُكْمِكُمْ لَمُعْتَقَبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

وهو سبحانه يحكم ما يريد؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِحُكْمِكُمْ مَا يَرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

بل ولا يشفع أحد في حكمه، ولا يجزؤ إلا بإذنه.

قال سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ولا يشفع الشفعاء إلا لمن ارتضى مع كونهم مشفقون خشية منه.

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

٦. الوعد الحق.

فهو سبحانه الذي لا يخلف وعده، فالمكلفون لا محالة مسئولين، والله سبحانه مجازيهم عن أعمالهم كما عهد إليه ووعدهم.

وقد أقسم ربنا سبحانه بذلك فقال سبحانه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

[الحجر: ٩٢].

وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١٩) ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُمَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٠) ﴿وَقَالُوا لِيَجْزِيَ اللَّهُ شَأْنَنا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩-٢١].

٥. الحكم الفصل.

حكم الله سبحانه فصل غير متعقب.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالَّذِينَ اشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَشَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥].

قال القرطبي: أي يقضي ويحكم بين المؤمنين والكفار، فيجازي كلا بما يستحق^(١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُضِ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

فمرجع الحكم كله إليه سبحانه، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، وقضاؤه في حكمه الحق، وهو خير الفاصلين، قال البغوي: والفصل يكون في القضاء^(٢).

إن السائل إذا كان حكمه وحسابه متعقباً

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/١٠٩.

(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٣/١٤٩.

وقال سبحانه: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

وفي الآية تأكيد الخبر بلام القسم ونون التوكيد لإزالة الشك في ذلك (١).

وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ سِيدُّوْا الْخَلْقِ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤].

فوعده سبحانه حق لا يخلف، فمن أحسن جوزي بالحسنى ومن أساء جوزي بعمله.

قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَىٰ﴾ [النجم: ٣١].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا. والمقصود أن المسؤول إذا لم يكن الحساب في حقه مجزومًا به فإنه قد لا يلتزم بمسؤولياته وقد يتردد. فكان الجزم بالسؤال والمحاسبة والمجازاة قاطعًا للشك في التبعة، ومفضيًا إلى التخلص من الريب والظن والشك. والسائل الذي لا يجزم بالمسؤولية يكون بذلك قد أمل المكلف في التخلص من التبعة، فإذا حاسبه وألزمه التبعة لم يكن أنصفه. والله سبحانه مع سرعة حسابه هو الحكم العدل.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٦/٨.

ثالثًا: موضوع سؤاله سبحانه:

يسأل الإنسان إجمالًا عن لا إله إلا الله: هل صدق بها وعمل بمقتضاها؟، ويسأل تفصيلًا عن الأعمال.

قال سبحانه: ﴿فَوَرِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣].

قال ابن عمر: عن لا إله إلا الله (٢)، وكذا عن انس ابن مالك مرفوعًا وموقوفًا (٣). والسؤال عن لا إله إلا الله يكون عن الوفاء بها والصدق لمقالها (٤).

وعن أبي العالية: يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة: عما كانوا يعبدون، وعماذا أجابوا المرسلين، وقال ابن عيينة: عن عملك وعن مالك.

وروى ابن أبي حاتم عن معاذ بن جبل أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا معاذ إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه، وعن فتات الطينة بأصبعه فلا ألفينك يوم القيامة وأحد غيرك أسعد بما آتاك الله منك) (٥).

وقال عبد الله بن مسعود: والذي لا إله

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥٥٠/٤.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٧/١٥٠.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦٠/١٠.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم، ٧/٢٢٧٣.

﴿لَتَيْبَهُمْ وَلَنَسْتَكُنَّ الْمَرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

وأن هذا السؤال كائن مع علم الله سبحانه المحيط بأفعالهم وأقوالهم وإسرارهم وإعلانهم إذ يقول سبحانه بعد: ﴿فَلَنَقْصَنَّ عَنْهُمْ بَعْلَهُمْ وَمَأْكُلًا غَيْرَ بَعْلِهِمْ﴾ [الأعراف: ٧].

وتفسير ذلك: أنه سبحانه وتعالى يخبر الرسل ومن أرسلهم إليهم بعلم يقين بما عملوه في الدنيا فيما أمرهم به ونهاهم عنه، وأنه سبحانه ما غاب عنه شيء عنهم وعن أفعالهم التي كانوا يفعلونها. وقد يشكل على البعض كيف أنه سبحانه يسأل الرسل، والمرسل إليهم، وهو يخبر أنه يقص عليهم بعلم بأعمالهم وأفعالهم فيما أمرهم به ونهاهم عنه؟

والجواب: أن سؤال الله لهم ليس بمسألة استرشاد أو تعرف ما هو غير عالم به، وإنما هو مسألة توبيخ وتقرير معناها الخبر، بأن يقول لهم: ألم يأتكم رسلي بالبينات؟ ألم أبعث إليكم النذر فتندركم عذابي وعقابي؟ وقد أخبر جل ثناؤه أنه قائل لهم يومئذ:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦١﴾ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠-٦١].

ونحو ذلك من القول الذي ظاهره ظاهر مسألة، ومعناه الخبر والقصص، وهو بعد

غيره، ما منكم من أحدٍ إلا سيخلو الله به يوم القيامة، كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، فيقول: ابن آدم ماذا غرك مني بي؟ ابن آدم، ماذا عملت فيما علمت؟ ابن آدم، ماذا أوجب المرسلين^(١).

وفي الحديث عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه وعن علمه فيم فعل وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن جسمه فيم أبلاه)^(٢).

وهذا مصداقه قوله سبحانه: ﴿لَتَسْتَأْذِنَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّبِيِّ﴾ [التكاثر: ٨].
فموضوع السؤال إذاً مجمل؛ وهو: لا إله إلا الله، هل عمل بها وصدق؟، ومفصل: ويتناول جميع العمل.

رابعاً: خصائص سؤاله سبحانه:

قرر القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى يسأل الرسل والمرسل إليهم عما عهد إليهم من مسؤوليات.

قال سبحانه: ﴿فَلَنَسْتَأْذِنَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ

(١) جامع البيان، الطبري، ١٧/١٥٠.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في القيامة وشأن الحساب والقصص، رقم ٢٣٥٤. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١٢٢١/٢، رقم ٧٣٠٠.

توبيخ وتقرير^(١).

قال ابن عباس: (لا يسألهم هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول لم عملتم كذا وكذا؟)^(٢).

أما مسألة الرسل الذي هو قصص وخبر، فإن الأمم المشتركة لما سئلت في القيامة قيل لها: ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم؟ أنكر ذلك كثير منهم وقالوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير. ف قيل للرسل: هل بلغتم ما أرسلتم به؟ أو قيل لهم: ألم تبلغوا إلى هؤلاء ما أرسلتم به؟

كما قال جل ثناؤه لأمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فكل ذلك من الله مسألة للرسل على وجه الاستشهاد لهم على من أرسلوا إليه من الأمم، وللمرسل إليهم على وجه التقرير والتوبيخ، وكل ذلك بمعنى القصص والخبر^(٣).

فسؤال المجرمين تقرير وتوبيخ وإفصاح، وسؤال الرسل سؤال استشهاد بهم وإفصاح^(٤).

فأما الذي هو عن الله منفي من مسأله

خلقه، فالمسألة التي هي مسألة استرشاد واستثبات فيما لا يعلمه السائل عنها ويعلمه المسؤول، ليعلم السائل علم ذلك من قبله، فذلك غير جائز أن يوصف به الله سبحانه وتعالى، لأنه العالم بالأشياء قبل كونها وفي حال كونها وبعد كونها، وهي المسألة التي نفاها جل ثناؤه عن نفسه بقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]؛ يعني: لا يسأل عن ذلك أحد منهم مستثبت، ليعلم علم ذلك من قبل من سأل منه، لأنه العالم بذلك كله وبكل شيء غيره^(٥).

من جميع ما سبق تظهر الخصائص التالية لسؤاله سبحانه خلقه:

- ✽ أنه سؤال يعم جميع المكلفين.
- ✽ أنه سؤال بعلم، فلا يقصد به الاسترشاد أو المعرفة.
- ✽ أن غاية السؤال: التوبيخ والتبكيك، أو التقرير، أو الاستشهاد والإفصاح.
- ✽ أنه سؤال يفيد الخبر.

خامسًا: كيف يرتب السائل المسؤولية:

إن الله سبحانه وتعالى لا يسأل الناس ويحاسبهم دون موجب، بل إنه سبحانه

(٥) جامع البيان، الطبري، ١٢/٣٠٧-٣٠٩.

(١) جامع البيان، الطبري، ١٢/٣٠٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/٥٥١.

(٣) جامع البيان، الطبري، ١٢/٣٠٧-٣٠٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/١٦٤.

والعهد في الآية الذي أخذه الله على بني آدم أن لا يعبدوا غيره، فنقضه يشمل الشرك وقد وصف الله المشركين بنقض العهد في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وفسر بالعهد الذي أخذه الله على الأمم على السنة رسلهم أنهم إذا بعث بعدهم رسول مصدق لما معهم ليؤمنن به: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَآءِ اتَّيْتِكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١].

و(عهد الله) هو ما عهد به أي: ما أوصى برعيه وحفاظه^(٣).

وهذا السؤال في آية يس معناه الخبر والقصص، والمقصود به التوبيخ والتقرير^(٤)، فإنه تعالى يقول للمجرمين وقد فرق بينهم وبين المؤمنين: ألم أوصكم وأمركم في الدنيا أن لا تعبدوا الشيطان فتطيعوه في معصية الله وأقول لكم: إن الشيطان لكم عدو مبين^(٥). وجعلت ذلك مسؤولية مسندة إليكم.

والعهد يقتضي في معناه الميثاق والاتفاق، فإن الله قد أخذ الميثاق على عباده أنه من أطاعه أدخله الجنة، ومن عصاه

قدم بين يدي السؤال ما تكون به الحجة للمجيب أو عليه، فإنه سبحانه أسند وعهد إلى عباده بمسؤوليات، ثم هداهم - توجيهاً - وأرشدهم إلى كيفية أدائها وما يترتب على الأداء والإخلال، وأخذ سبحانه على نفسه إحصاء أعمالهم وكتابتها والإشهاد عليهم، ثم إنه سبحانه وتعالى يجمعهم بقدرته لا يتخلف منهم أحد، ثم إنه سبحانه بعد ذلك يسألهم محاسباً، ويوفيهم حسابهم. ومن هذا الترتيب تظهر مراتب المسؤولية التي رتب الله سبحانه؛ وهي: العهد والإسناد، الهداية والإرشاد، الرقابة والإحصاء والإشهاد، الإرجاع والجمع، والسؤال حساباً والجزاء العهد والإيجاب والإسناد:

العهد يطلق على الأمر والوصية؛ قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا﴾ [آل عمران: ١٨٣].

أي: أمرنا وأوصانا^(١).

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ أَعٰهَدَ إِلَيْكُمْ بِبَيْتِ عَادَآءَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطٰنَ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠].

والعهد اليمين والعهد الالتزام بشيء، يقال: عهد إليه وتعهد إليه؛ لأنها أمور لا يزال صاحبها يتذكرها ويراعها في مواقع الاحتراز عن خفرها^(٢).

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/٣٦٩.

(٤) المصدر السابق ٢٠/٥٤٢.

(٥) جامع البيان، الطبري، ١٢/٣٠٧.

(١) معالم التنزيل، البغوي، ٢/١٤٤.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/٣٧٠.

حاسبه بما هو أهله فإما عفا عنه وإما عذبه ثم عفا عنه، وإما خلده في العذاب، والآيات القرآنية متواترة في ذلك.

قال سبحانه: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وبمعنى الأمر والإيجاب قال سبحانه:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفِي وَلَا نَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [٣٣] وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ﴾ [٢٤] وَتُكْرِمُوا أَعْلَامَكُمْ بِمَا فِي نَفْسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَادِقِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأُولَئِكَ عُقُوبًا ﴾ [٢٥] وَمَاتِذَا الْقُرُوفُ حَقُّهُمُ وَالْمُسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَلَا تُبْدِرُوا بَدْرِيًّا ﴿٣٦﴾ إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٣٧﴾ وَإِمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ أَيَّتَافَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهُمَا فَعَلَّ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿٣٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٤٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ سَنَ تَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٤١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا

فَقَدْ جَعَلْنَا لِرَبِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطِ أَسْفِيفٍ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْسَسْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَضُرَّكَ الْأَرْضُ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٨].

قال الشنقيطي: وقضى ربك معناه: أمر والزم، وأوجب ووصى ألا تعبدوا إلا إياه^(١).

قال ابن عباس والحسن وقتادة: ليس هذا قضاء حكم بل هو قضاء أمر^(٢).

فالذي يسند المسؤوليات تحقيق بالسؤال عنها، ولذلك أوضح الله عز وجل في السياق السابق أن المسؤوليات التي أسندها إلى عباده سيسألهم عنها، وأن السؤال لا يتعلق بعمل الجوارح فقط في أداء المسؤوليات، بل يتعلق كذلك بالتلقي والقبول.

والخلاصة أن الله كلف العباد والزمهم وأوجب عليهم مسؤوليات على الجملة والتفصيل، وهو سائلهم عنها بموجب كونه

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٨٦/٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/٢٣٧.

المسند لها والعاهد بها.

الهداية والإرشاد:

تبين آيات القرآن الكريم أن الله هدى عباده وأرشدهم إلى كيفية أداء هذه المسؤوليات التي عهد بها إليهم، وأنه سبحانه أعلمهم بعواقب اختيارهم.

قال سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلْسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾ [الإنسان: ٣-٥].

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ إنا بينا له طريق الجنة، وعرفناه سبيله^(١).

وقال ابن كثير: أي: بيناه له ووضحناه وبصرناه به، كقوله: ﴿وَأَمَّا نُمُودٌ فَمَا هِيَ بِغَافِلَةٍ وَأَمَّا كَذَبَاتٌ فَكَافِلَةٌ﴾ [فصلت: ١٧].
وكقوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ١٠].

أي: بينا له طريق الخير وطريق الشر. وهذا قول عكرمة، وعطية، وابن زيد، ومجاهد - في المشهور عنه - والجمهور^(٢).

ثم إنه سبحانه وضح عواقب اختيارهم، فالسلاسل والأغلال والسعير معدة للكافرين، أما الأبرار فإن ما لهم الشراب

الهنيء والفضل الكبير.

وتظهر آيات القرآن الكريم - كما في الآية الآتية الذكر من سورة فصلت - أن الله سبحانه وتعالى أرشد كل أمة إلى سبيل الرشده والخير، وبين لهم عواقب الغي والفساد، وأنه سبحانه أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، والقرآن الكريم ذاخر بخصص الرسل مع أقوامهم؛ كيف دعوهم إلى الحق وبينوا لهم سبيل الرشاد.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ يُبَيِّنُ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ [إبراهيم: ٤].

وهذا من لطفه تعالى بخلقه: أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم^(٣).

فالهداية والإرشاد تأتي في المرتبة بعد العهد والإيجاب، وهي الدلالة على السبيل المؤدي إلى أداء المسؤوليات المعهود بها على وجهها الأتم، والتعريف بالسبيل التي تصد عن ذلك.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

المراقبة والإحصاء والإشهاد:

إن الله سبحانه بعد أن عهد بالمسؤوليات،

(١) جامع البيان، الطبري، ٩٢/٢٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢٨٦/٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤٧٧/٤.

كل شيء من أمر خلقه شاهد يعلمه ويحيط به، فلا يعزب عنه شيء^(٣).

وقال سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ [النبا: ٢١-٢٩].

أي: وكل شيء أحصيناه فكتبناه كتاباً، كتبنا عدده ومبلغه وقدره، فلا يعزب عنا علم شيء منه^(٤).

وكل شيء من قليل وكثير، وخير وشر مكتوب في اللوح المحفوظ، فلا يخشى المجرمون أن يعذبوا بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبوا أنه يضيع من أعمالهم شيء، أو ينسى منها مثقال ذرة.

كما قال تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَقَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أُحْطًا﴾ [الكهف: ٤٩]^(٥).

وفي الإشهاد: قال ابن زيد: الأشهاد أربعة:

أولها: الملائكة الموكلون بإثبات أعمال العباد. قال تعالى: ﴿وَحَآءَ كُلِّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ

وأرشد إلى سبيل أدائها، أخبر أنه سبحانه يراقب أعمال العباد ويحصىها عليهم ويشهد عليها، مع أنه سبحانه العليم الذي أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً، لا يخفى عليه شيء، يعلم الغيب والسر وأخفى.

قال سبحانه في المراقبة: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

والمعنى: أن الله لم يزل عليكم رقيباً، أي: حفيظاً، محصياً عليكم أعمالكم^(١).

وقال عز من قائل: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢].

أي: راقباً أو مراقباً بمعنى حافظاً ومطلعاً على كل شيء فاحذروا تجاوز حدوده سبحانه وتخطي حلاله إلى حرامه^(٢).

وقال سبحانه في الإحصاء: ﴿يَوْمَ يَعْتَصِمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنْتِظَهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].

أي: أنه سبحانه يبعث الرجال والنساء جميعاً من قبورهم في حالة واحدة فيخبرهم بما عملوا في الدنيا، وأنه سبحانه قد أحصى ذلك عليهم، أي: ضبطه وأثبته وحفظه عليهم في صحائف أعمالهم، ونسوه هم حتى ذكرهم به في صحائفهم، والله على

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٣/٢٣٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/٢٨٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/٤١.

(٤) جامع البيان، الطبري، ٢٤/١٦٦.

(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٩٠٦.

(١) جامع البيان، الطبري، ٧/٥٢١.

(٢) روح المعاني، الألويسي، ٢٢/٦٧.

رَقِيبٌ عَيْدٌ ﴿١٨﴾ [ق: ١٨].

وقال عز من قائل: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَثِيرِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وثانيها: شهادة الأنبياء وهو المراد بقوله سبحانه حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

وقال في حق محمد صلى الله عليه وسلم وأمه في هذه الآية: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٤١].

وثالثها: شهادة أمة محمد خاصة. قال تعالى: ﴿وَجَاءَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

ورابعها: شهادة الجوارح وهي بمنزلة الإقرار بل أعجب منه.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

وقال: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

﴿٦٥﴾ [يس: ٦٥] (١).

والإشهاد دلالة على تمام عدله سبحانه، حتى إنه سبحانه يفسح المجال للمجادلة وإيراد الحجج يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتستشهد، كما في آية يس السابقة: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

قال ابن كثير: فهذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة، فإنهم إذ ينكرون ما اجتمروه ويحلفون أنهم ما فعلوه، يختم الله على أفواههم، ويستنطق جوارحهم (٢).

وفي الصحيح عن أنس بن مالك، قال: (كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك، فقال: (هل تدرن من أضحك؟)، قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: (من مخاطبة العبد ربه، يقول يا رب: ألم تجرني من الظلم؟، قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجزى على نفسي إلا شاهدًا مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانها: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بعدًا لكن وسحقًا، فعنك كنت

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢/ ٩٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٥٨٥-٥٨٦.

أناضل^(١).

قال صالح بن عبد القدوس - وهو أحد شعراء العصر العباسي -:

واذكر مناقشة الحساب فإنه

لا بد يحصى ما جنيت ويكتب

لم ينسه الملكان حين نسيتهُ

بل أثبتاه وأنت لاه تلعب

الجمع والسؤال والحساب:

إن الله سبحانه بعد أن عهد إلى عباده

أمره، وهداهم وأرشداهم وإلى طريق الفلاح

دلهم، وأخبرهم بأنه رقيب عليهم، وأنه

يحصي عليهم أعمالهم و يشهد عليهم،

بعد هذا كله توعدهم بأنه سبحانه جامعهم

جميعاً لا محالة، وسائلهم عما عهد إليهم،

ومحاسبهم على أعمالهم.

قال سبحانه في الجمع: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْسِبُكُمْ

يُسَبِّحُكُمْ يُصَمِّرُكُمْ لِيَومِ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٦].

يعني: أنه يجمعكم جميعاً أولكم

وأخركم، وصغيركم وكبيركم أحياء ليوم

القيامة فلا تشكوا في ذلك، فإن الأمر كما

وصفت لكم^(٢).

وقال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمِ

لَا رَبَّ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ

وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ

لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ

﴿١﴾ [آل عمران: ٩].

وقال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ

يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي

السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ

يَوْمُ النَّفَاثِينِ﴾ [التغابن: ٩].

وقال عز من قائل: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى

اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الَّتِي لَا لَهُ الْخَلْقُ وَهُوَ أَسْرَعُ

الْحَسِيبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

فالقرآن الكريم أثبت الجمع، وأنه واقع

لا محالة، وأنه الجميع مجموع، وذلك في

آيات كثيرة.

وقال سبحانه في السؤال: ﴿فَلَنَسْتَأَنَّ

الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَأَنَّكَ الْمُرْسَلِينَ﴾

[الأعراف: ٦].

فإن الله بعد أن يجمع الخلائق ليوم

القيامة يسأل المرسل إليهم عما أجابوا

رسله، ويسأل الرسل عن تبليغ الدعوة

لأقوامهم حتى يكون أبلغ في التبكيث على

من خالفهم، وقد مضى بيان ذلك. والآيات

والواردة في السؤال والمحاسبة كثيرة وقد

مضى ذكرها.

وقال سبحانه في المحاسبة: ﴿إِنَّا إِنَّا

إِيَابَهُمْ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿١٦﴾ [الغاشية:

(١) أخرجه مسلم ٥٢٧٥، كتاب الزهد والرفائق.

(٢) جامع البيان، الطبري، ٨٠/٢٢.

[٢٥-٢٦].

وَمِن كَلِمَاتِ حِكْمَةٍ مِنْ خَرَدَلٍ آتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا

حَسْبِينَ ﴿٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال سبحانه في الجزاء: ﴿الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

وهو إخبار عن قيله يوم القيامة حين يبعث خلقه من قبورهم لموقف الحساب؛ يقول: اليوم يثاب كل عامل بعمله، فيوفى أجر عمله، فعامل الخير يجزى الخير، وعامل الشر يجزى جزاءه^(٤).

وقال جل من قائل: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَاجْزَى كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٢].

كما في الحديث القدسي: (يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)^(٥).

وقال سبحانه: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [سورة سعي: ٣٦] وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يَرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾ [النجم: ٣٩-٤١].

أي: يجزى الإنسان بسعيه الجزاء الأكمل والأتم^(٦).

والآيات في ذكر الجزاء وترتيبه بعد

فالمرجع والمنقلب إلى الله سبحانه، والحساب والجزاء عليه سبحانه على وفق العمل إن خيراً فخير، وإن شراً فشر^(١).

وقال سبحانه: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُا يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْلَمُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

قال الطبري: ﴿يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ يعني بذلك: يحتسب به عليكم من أعمالكم، فمجاز من شاء منكم من المسيئين بسوء عمله، وغافر لمن شاء منكم من المسيئين^(٢).
القضاء والجزاء:

قال سبحانه في القضاء: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣]؛ أي: يحكم بينهم ويفصل يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون في الدنيا، فيثيب الطائع ويعاقب العاصي^(٣).

والحكم والفصل بالعدل بين المتنازعين والمختلفين يقتضي الحساب والسؤال والتقرير بالوقائع. وقضاء الله مبني على العدل والإحسان، فلا تظلم نفس شيئاً.

قال سبحانه: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣٨٩/٨.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٠١/٦-١٠٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣٨١/٨.

(٤) جامع البيان، الطبري ٢١/٣٦٦.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الظلم، رقم ٤٦٨٠.

(٦) معالم التنزيل، البغوي، ٧/٤١٧.

المسؤول

أولاً: الرسل عليهم السلام:

والرسل عليهم السلام في القرآن: هم من اختارهم الله سبحانه واصطفاهم من الملائكة والناس، وكلفهم بإنفاذ ما شاء من قدره، أو بلاغ ما شاء من رسالاته وشرعه؛ قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥].

فالملائكة رسل الله فيما شاء من شرعه وقدره، ورسله من الناس لإبلاغ رسالاته، وهو سميع لأقوال عباده بصير بهم عليم بمن يستحق ذلك منهم، قال سبحانه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] (٤). وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿مَا نَزَّلَ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨]. قال: بالرسالة والعذاب (٥).

أما الملائكة فإنهم مجبولون على الطاعة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون؛ قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وقال سبحانه رداً على من قال إن الملائكة بنات الله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٦﴾ لَا

الابتلاء كثيرة. والله سبحانه ذو رحمة واسعة وفضل عظيم إذ يعفو عن كثير، فلا يحاسب المؤمنين بحديث النفس، ويغفر الكثير من الخطأ والزلات، ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات.

وقد جمع الله سبحانه في آية الأنعام المعاني السابقة؛ فقال: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحُسَيْنِ﴾ [الأنعام: ٦٢].

فالرد كالرجع في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ رُجِعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] (١)، قيل: يعني العباد يردون بالموت إلى الله مولاهم الحق مالك الكل ومتولي الأمور، الذي له القضاء دون خلقه، وهو إذا حاسب فحسابه سريع؛ لأنه لا يحتاج إلى فكرة ورؤية وعقد يد (٢)، بل إنه سبحانه أسرع من يحاسب فلا يتأخر جزاؤه (٣).

(١) المفردات، الراغب الأصبهاني، ٣٩٣/١.

(٢) معالم التنزيل، البغوي، ١٥١/٣.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨٠/٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥/٤٥٤.

(٥) جامع البيان، الطبري، ٦٨/١٧.

أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلِنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٧﴾ [الأعراف: ٢٦-٢٧].

يعني لنسألن الأمم عن إجابتهم الرسل، ﴿وَلِنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ عن الإبلاغ ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عن الرسل فيما بلغوا، وعن الأمم فيما أجابوا^(٣).

مقاصد سؤال الرسل:

إن الرسل أحرى الخلق بالاستقامة على الحق، ولكن ثبت سؤالهم في القرآن الكريم في غير موضع، كما قال ربنا سبحانه: ﴿فَلِنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلِنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

والرسل يسألون عن الإبلاغ كما تقدم، والله سبحانه غير غائب عن خبرهم بل يعلم جميع ذلك، فلم يسألهم؟ والجواب أن الله سبحانه يسأل الرسل يوم القيامة لمقاصد عظيمة؛ منها:

١. إقامة الشهادة.

قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ﴿٥١﴾ ﴿يَوْمَ يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ﴿٥٢﴾ [النساء: ٤١ - ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤].

يَسْئَلُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨].

فأبطل الله سبحانه دعوى القائلين بذلك، بوصفهم بأنهم عباد مكرمون بكرامته سبحانه لهم، مقربون عنده، وبأنهم لا يسبقونه بالقول أي لا يقولون شيئاً حتى يقوله، أو يأمرهم به، وفي هذا دليل على كمال طاعتهم وانقيادهم. ثم وصفهم بأنهم العاملون بما يأمرهم به سبحانه، التابعون المطيعون له^(١). وبمثل هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحٍ مثنًى وَثَلَاثَ وَرُبْعَ زَيْدٍ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١﴾ [فاطر: ١].

قال السعدي: وفي ذكره أنه جعل الملائكة رسلاً، ولم يستثن منهم أحداً، دليل على كمال طاعتهم لربهم، وانقيادهم لأمره^(٢). فلا يقع عليهم السؤال والمحاسبة إذ لا تقع عليهم المسؤولية والتبعة. وهذا هو الأصل.

وأما الرسل من البشر، فالمسؤولية في حقهم ثابتة، وسؤالهم في القرآن وارد في غير موضع؛ قال تعالى: ﴿فَلِنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ

(١) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٩٣٣-٩٣٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٨٠٣.

(٣) معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ٢١٤.

قال القرطبي: واختلف أهل التأويل في معنى هذا السؤال وليس هو باستفهام وإن خرج مخرج الاستفهام على قولين؛ أحدهما: أنه سأله عن ذلك توبيخاً لمن ادعى ذلك عليه ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ في التكذيب، وأشد في التوبيخ والتفريع^(١).

تعريف الرسل بما غير أقوامهم من بعدهم: وهذا هو القول الثاني في الآية السابقة، فإنه سبحانه بهذا السؤال قصد تعريف عيسى عليه السلام أن قومه غيروا بعده، وادعوا عليه ما لم يقله^(٢).

سلوك الرسل حال السؤال:

يظهر الرسل حال سؤالهم عظيم تنزيههم لربهم وتعظيمه ومعرفة قدره سبحانه، وعظيم امتثالهم لأمره وشرعه، وعظيم تواضعهم لله وافتقارهم إليه، واستحالة ادعائهم ما ليس لهم بحق، وجواب عيسى عليه السلام عن السؤال مثال بين على ذلك. وفي سورة المائدة يسأل الله سبحانه الرسل عما أجابتهم أمهم، وكيف ردوا عليهم حين دعوهم إلى طاعته وتوحيده، قال عز من قائل: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِندَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

فردوا إليه سبحانه العلم إذ أجلوه وتأدبوا

(١) معالم التنزيل، البيهقي، ١٢١/٣-١٢٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦/٣٧٥.
(٢) المصادر السابقة.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبَعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّدًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

فهذه الآيات توضح أن سؤال الرسل عن البلاغ إقامة للشهادة على أقوامهم بأن أمر الله ودعوته وعهده قد وصلتهم، كما يشهد الرسل على إجابتهم ما داموا فيهم، كما جاء في التنزيل على لسان عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

٢. تبيكيت وتوبيخ المكذبين وتحقيرهم.

وذلك لما يرون من تبرؤ معبوديهم من عبادتهم، وإثبات وصول دعوة الحق لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلٰمُ الْغُيُوبِ﴾ [١١٧] مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

كلامه، ويكون المعني بالرسول -بالتالي- إبراهيم، وهذا إظهار في مقام الإضمار لتقرير أن واجب الرسول - أي رسول- هو إبلاغ ما أرسل به بيناً واضحاً^(٣).

وقال تعالى على لسان الثلاثة الرسل في معرض ضرب المثل لمشركي قريش بأصحاب القرية: ﴿قَالُوا رَبَّنَا عَلَّمْنَا مَا لَا آتَانَا إِلَّا مِنَ الْبَلَدِ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَّمْنَا إِلَّا الْبَلَدَ الْمُرْسَلَةَ ﴿١٧﴾﴾ [يس: ١٦-١٧].

وقد جاء بيان أن مسؤولية الرسل في مقام الرسالة مقتصر على البلاغ المبين في مقام التهديد والوعيد خطاباً للمرسل إليهم، كما جاء في مقام التسلية والتعزية والتخفيف خطاباً للرسل؛ فمما جاء خطاباً للمرسل إليهم قوله تعالى: ﴿مَّا عَلَّمَ الرَّسُولَ إِلَّا الْبَلَدَ الْمُرْسَلَةَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَّمْنَا إِلَّا الْبَلَدَ الْمُرْسَلَةَ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة: ٩٩].

قال أبو جعفر الطبري: وهذا من الله تعالى ذكره تهديد لعباده ووعيد، فمهمة الرسول أن يؤدي إليكم رسالتنا، والله المطلع على المطيع والعاصي؛ لأنه يعلم ما عمله العامل في الظاهر بجوارحه، وما أخفاه في نفسه من إيمان وكفر أو يقين وشك ونفاق^(٤).

ومن ذلك أيضاً قوله سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا

معه فيما عندهم من العلم، وفزعوا من هول يوم القيامة، واعترفوا بفوات ما غاب منهم مما هو في صدور الناس، أو مما أحدثوا بعدهم، ومما كان من عاقبة أمرهم^(١).

وفي سلوك الرسل حال السؤال إظهار منهجهم في أداء رسالاتهم وأنهم يبلغون رسالات الله ويخشونه، كما قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَلْفُفُونَ رِسَالَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وكمال تأديبهم مع الله سبحانه، والتسليم لأمره ولحكمته.

مسؤولية الرسل:

مسؤولية الرسل في مقام الرسالة تقتصر على البلاغ المبين؛ قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

وهذا سؤال استنكاري يفيد تقرير أن الرسل ليس عليهم إلا التبليغ بين الظاهر الذي يصل إلى القلوب، ولا يبقى لأحد على الله حجة^(٢).

وقال عز من قائل: ﴿وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨].

وهذه الآية تحتل أن تكون من كلام إبراهيم عليه السلام تكملة لما سبق من

(١) معالم التنزيل، البغوي، ١١٥-١١٦، ٣/٢٢٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/١٠٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٤٠.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٠/٢٢٧.

(٤) جامع البيان، الطبري، ١١/٩٦.

اللَّهُ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى
رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿﴾ [التغابن: ١٢].

وهذه الآية أيضًا في مقام التهديد والوعيد؛ فهو سبحانه يقول للناس: إن الرسول قد أعدر إليكم بالإبلاغ والله ولي الانتقام ممن عصاه وخالف أمره^(١).

ومما جاء خطابًا للرسول قوله تعالى لنيبه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٨٢].

وهو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أن يخفف عن نفسه، ولا تذهب نفسه حسرات عليهم إن قابلوه بالإعراض وعدم الاستجابة، فيخبره سبحانه أنه ليس عليه من لوم ولا عدل إذ أدى ما عليه من بلاغ ما أرسل به بينًا وواضحًا^(٢)، ويقول له: فلا عليك منهم^(٣).

ومنه أيضًا قوله سبحانه: ﴿ فَإِن أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِلاَّ أَلَّا الْبَلْغُ ﴾ [الشورى: ٤٨].

وتعني: أن الله لم يرسلك رقيبًا تحفظ أعمالهم وتحصيها، فإن أعرضوا ولم يستجيبوا لك فدعهم، فما عليك إلا أن تبلغهم ما أرسلناك به إليهم، فإذا بلغتهم فقد أديت ما عليك^(٤).

فيظهر من ذلك كله أن مخاطبة المرسل إليهم عن انحصار مهمة الرسل في البلاغ المبين فحواه: التهديد والوعيد بأن خصمهم ليس هو الرسول وإنما من بعثه وهو الله سبحانه وليسوا بأهل لخصومته. ويظهر أن الغرض من مخاطبة المرسلين بذات الخطاب؛ وهو: التخفيف عنهم، وتسليتهم، وبيان لحدود واجبه.

والرسل في مقام العبودية مخاطبون بفروع الشريعة كما هو شأن عامة المؤمنين، وبالتالي فهم مسؤولون عما أسند إلى عامة المؤمنين من مسؤوليات، فليس معنى اقتصار مسؤوليتهم على البلاغ أنهم غير مخاطبين بفروع الشريعة، بل إن الله سبحانه أمرهم بما أمر به المؤمنين، لكنها مسؤولية خاصة.

فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب

(١) المصدر السابق ٢٣/٤٢٢.

(٢) المصدر السابق ١٧/٢٧٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/٥٩٢.

(٤) جامع البيان، الطبري، ٢١/٥٥٦.

رجح القرطبي أن يكون المقصود بالذكر هنا القرآن لانباء الكلام عليه ورجوع المصير إليه.

وأشار الماوردي (٢) إلى قولين في قوله تعالى ﴿وَلَقَوْمِكَ﴾ أحدهما: من اتبعك من أمتك، والثاني: لقومك من قريش.

والصحيح أنه شرف لمن عمل به، كان من قريش أو من غيرهم.

وقد وردت الأدلة المتكاثرة أنه لا فضل إلا بالتقوى، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين) (٣).

فيكون المقصود بقومك المؤمنون، ويكون السؤال عن الشكر عن رفع القدر بهذا القرآن، أو تسألون على ما أوتيتم. وقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ نَسْتَلُونَ﴾ أي: عن الشكر عليه؛ قاله مقاتل والفراء. وقال ابن جريج: أي: تسألون أنت ومن معك على ما أتاك. وقيل: تسألون عما عملتم فيه؛ والمعنى متقارب (٤).

كذلك فقد ثبت في القرآن الكريم أن أمة الإجابة تشهد، ولا تكون الشهادة إلا إجابة

(٢) النكت والعيون، الماوردي، ٥/ ٢٢٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه وفضل من تعلم حكمة من فقهه أو غيره فعمل بها وعلمها، رقم ١٣٥٩. عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/ ٩٤.

لذلك) (١).

ثانياً: المؤمنون:

إن الله سبحانه كما يسأل الرسل فإنه يسأل المؤمنين، وقد ثبت في القرآن مسؤولية المؤمنين في غير ما آية.

قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتَسْتَلْنَ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣].

يأتي هذا الحديث في معرض وصايا للمؤمنين، حيث أمرهم الله سبحانه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ونهاهم عن الفحشاء والمنكر والبغي، كما أمرهم بالوفاء بعهد الله ونهاهم عن نقض الأيمان بعد توكيدها، وغيرها. وهذا السياق يدل على أن المسؤولين هم المؤمنون. فالمؤمنون مسؤولون يوم القيامة.

وقال تعالى: ﴿لَتَسْتَلَّ الضَّالِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٨].

وجملة الأقوال في المقصود بالصادقين أربعة؛ منها: ليسأل الأقواء الصادقة عن القلوب المخلصة، فيشمل بذلك المؤمنين.

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ نَسْتَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم ١٦٩٢.

عن سؤال.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].
وأمة الإجابة هم المؤمنون في الجملة.

ثالثاً: الكافرون:

إن سؤال الكافرين ثابت في القرآن في آيات كثيرة جداً، وسؤال الله للكفار في القرآن كله توييح وتقرية (١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقَفَّوهُمْ لِيَتَذَكَّرُوا (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ (٢٥) [الصفات: ٢٢ - ٢٥].

وقوله سبحانه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلِنَّهِنَّ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢].

وقال عز من قائل: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢].

وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتُمْ لَا مَعَّ أَنْتَاطِلَهُمْ وَلَيَسْتَلْنَّ يَوْمَ الْفَيْكَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ

الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنْتِنَا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكُنَّبُ شَهَدَاتِهِمْ وَسْتَلُونُ﴾ [الزخرف: ١٩].
وقال سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيْبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَشَتْلَنَ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦].

وقال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ ۝١٦ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۝١٧ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى ۚ وَكَفَرَ ۝١٨ فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ۝١٩ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝٢٠ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ۝٢١﴾ [الغاشية: ٢١-٢٦].

وقد يشكل على البعض سؤال الكافر بسبب بعض الآيات التي تشير إلى حجب الكفار وعدم سؤالهم وعدم تكليمهم، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَا يُسْتَلُّ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

وقوله عز من قائل: ﴿فَيَوْمِذٍ لَا يُسْتَلُّ عَنْ ذُنُوبِهِمْ لِسٌ وَلَا جَانٌ﴾ [الرحمن: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيْلًا أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْفَيْكَمَةِ وَلَا يَزْكِيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

وقوله سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِذٍ لَمَّحُجُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

والذي يظهر أنهم مسؤولون لآية الحجر السابقة، ولقوله سبحانه: ﴿وَقَفَّوهُمْ لِيَتَذَكَّرُوا﴾ [الصفات: ٢٤].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، ٧/٢.

حاتم، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما منكم أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة)^(٥) أن يكون المقصود المؤمنون، كما يحتمل أن يكون المقصود العموم.

رابعاً: المنافقون:

المنافقون هم آفة هذه الأمة، والنفاق في اللغة من جنس الخداع والمكر وإظهار الخير وإبطان الشر، وهو في الشرع ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: النفاق الأكبر؛ وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه، وهو النفاق الذي كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن بدم أهله وتكفيرهم، وأخبر أن أهله في الدرك الأسفل من النار.

والثاني: النفاق الأصغر؛ وهو نفاق العمل، وهو أن يظهر الإنسان علانية

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، رقم ٦٩٨١، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب المحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار، رقم ١٦٩٤.

وقوله تعالى: ﴿إِن لِّتَيْنَا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ آيَاتٍ ۖ ثُمَّ إِنَّا عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦]^(١).

وقد جمع القرطبي توجيهات الجمع بين الآيات عند أهل العلم في وجهين؛ الوجه الأول: أن القيامة مواطن، فموطن يكون فيه سؤال وكلام، وموطن لا يكون ذلك فيه. وهو قول عكرمة؛ قال: القيامة مواطن، يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها. الوجه الثاني: وهو قول ابن عباس؛ قال: لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام هل عملتم كذا وكذا، لأن الله عالم بكل شيء، ولكن يسألهم سؤال تقييد وتوبيخ فيقول لهم: لم عصيتم القرآن وما حجتكم فيه؟ واعتمد قطرب هذا القول^(٢)؛ فقال: السؤال ضربان، سؤال استعلام، وسؤال توبيخ، فقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ يعني: استعلاماً.

وقوله سبحانه: ﴿لَسْتَ تَسْأَلُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: توبيخاً وتقريراً^(٣).

وقيل: لسألنهم أجمعين يعني المؤمنين المكلفين، بيانه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَسْتُمْ لَنَا يَوْمَئِذٍ مِنَ النَّاصِرِينَ﴾ [التكاثر: ٨].

والقول بالعموم أولى كما ذكر^(٤).

ويحتمل في الحديث عن عدي بن

- (١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/٦١.
- (٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/٦١.
- (٣) معالم التنزيل، البغوي، ٤/٣٩٥-٣٩٦.
- (٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/٦١.

شَهِدَ إِنَّكَ لِرَسُولِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لِرَسُولِهِ وَاللَّهُ
يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا
أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا
كَافَرُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَمَعَ
عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ [المنافقون:
١-٣].

فوصفهم سبحانه بالكذب، وبأن أيمانهم
وحلفهم بأنهم منكم ادعاء يريدون به حماية
أنفسهم وأموالهم وذرائعهم^(٥)، والإعراض
والصد عن سبيل الله، وإضعاف المؤمنين
من خلال التغلغل في نسيجهم.

قال سبحانه: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا
زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضَعِفُوا خِلَلَكُمْ
يَعْبُودُكُمْ الْفَنَاءُ وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [التوبة: ٤٧].

وقد دل القرآن الكريم على إمارات
التعرف إليهم، والتي تظهر في أقوالهم
وأفعالهم.

قال سبحانه: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ
فَلَمَرَفْنَهُمْ بِيَسِينِهِمْ وَلَتَعْرَفْنَهُمْ فِي لَحَنِ الْقَوْلِ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٠].

فوصف من أقوالهم الأمر بالمنكر
والنهي عن المعروف.

قال سبحانه: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ
بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ

(٥) جامع البيان، الطبري، ٢٣/٣٩٤.

صالحة، ويطن ما يخالف ذلك^(١).

وأصول هذا النوع ترجع إلى خمس
خصال ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم؛
قال: (آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب،
وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان)^(٢).

وفي الحديث الآخر قال: (أربع من كن
فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلةٌ
منهن كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدعها
إذا، أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا
عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)^(٣).

وهي: الكذب، إخلاف الوعد، الفجور
في الخصومة، الغدر بالعهد، والخيانة في
الأمانة^(٤).

خص ربنا سبحانه وتعالى المنافقين
بالذكر في سورة كاملة بين فيها سبيل النجاة
من سيئهم، وعرف بهم في آيات كثيرة من
القرآن.

قال سبحانه: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنْفِقُونَ قَالُوا

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي،
٤٨١/٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان،
باب علامة المنافق، رقم ٣٢، ومسلم في
صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال
المنافق، رقم ٩٢، عن أبي هريرة رضي الله
عنه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان،
باب علامة المنافق، رقم ٣٣، ومسلم في
صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال
المنافق، رقم ٩١.

(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي،
٤٨٢-٤٨٨/٢.

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الذَّرِكِ
الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾
[النساء: ١٤٥].

وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ
فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ
مُهِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

وقد جمع القرآن بين صفاتهم وبين أنهم
سيسألون ويحاسبون، كما في قوله سبحانه:
﴿وَلَا يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [١٢] ﴿وَلَا قَاتِلَ
طَائِفَةٍ مِنْهُمْ يَتَّاهَلُ يَتْرَبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا
وَيَسْتَقِذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ
وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [١٣] ﴿وَلَوْ دَخَلَتْ
عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا
تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا﴾ [١٤] ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ
مِنْ قَبْلُ لَا يُولُوكَ إِلَّا ذَبْرًا وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا
﴾ [الأحزاب: ١٢-١٥].

والآيات جاءت في وصف أحداث غزوة
الأحزاب حين حاصرت جموع المشركين
المدينة، فزاغت الأبصار وبلغت القلوب
الحناجر وابتلي المؤمنون أشد البلاء،
وأظهرت شدة البلاء ما في قلوب المنافقين
من الغيظ، هنالك ادعى المنافقون أن وعد
الله ورسوله بالنصر متخلف، وسعى فريق
منهم للتخذيل، وفريق سعى للفرار والنأي
بنفسه بادعاءات كاذبة وحجج واهية، وأخبر

سُوا اللَّهَ فَتَسِيْبُهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمْ
الْفٰسِقُونَ﴾ [١٧] [التوبة: ٦٧].

ووصف منها أيضًا: الاستهزاء بالله وآياته
ورسوله، ويروغون عن مسؤولية قولهم هذا
بكونه مجرد خوض ولعب.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ
إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ
وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

ووصف من أفعالهم التكاثر عن
الصلاة، بل إنهم كانوا في عهد رسول الله
يغيبون عن صلاتي العشاء والفجر من أجل
أن العتمة تخفي الوجوه فلا يعرف الحاضر
من الغائب.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ
اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا
كَسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾
[النساء: ١٤٢].

ووصف كذلك من أفعالهم موالاتة الكفار
وأعداء الأمة المسلمة.

قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ
اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤].

وبسبب سوء صنيعهم الذي يشكل
معاول لهدم الصف المسلم، وهدم قيمه
وثوابته، توعدهم الله سبحانه أشد الوعيد.

قال سبحانه: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨].

إلا في موضع سورة الأحزاب، وأن الموضع الذي ذكر فيه هو موضع الخيانة والخذلان والتخذيل، ويشير ذلك إلى أن شر المنافقين الأساسي، وضررهم الأكبر يتمثل في هذه الأعمال التي تستهدف تماسك الأمة وروحها المعنوية.

خامساً: الولاية:

يخبر القرآن الكريم أن الولاية محل للسؤال، وأن الولاية مسؤولون مهما كانت درجة ولايتهم.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

وقد رأى كثير من المفسرين أن هذه الآية خاصة بالأمراء، قال أبو جعفر الطبري: وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك عندي، قول من قال: هو خطاب من الله ولاة أمور المسلمين بأداء الأمانة إلى من ولوا أمره في فيثهم وحقوقهم، وما ائتمنوا عليه من أمورهم، بالعدل بينهم في القضية، والقسم بينهم بالسوية. يدل على ذلك ما وعظ به الرعية في الآية التالية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

فأمرهم بطاعتهم، وأوصى الراعي

الله سبحانه أنهم لو دخلت عليهم جيوش المشركين التي يريدون قتالها من أطراف المدينة ثم سئلوا أن يكفروا وكفروا، يحملهم على ذلك: الخوف منهم، وخبث الفتنة التي هم عليها من النفاق عليه. والفتنة هي الكفر، وهي التي يقول الله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١].

أي: الكفر. هذا مع كونهم كانوا عاهدوا الله من قبل ذلك، ألا يولوا عدوهم الأدبار إن لقوهم في مشهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم معهم، فما أوفوا بعهدهم ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ أي: فيسأل الله ذلك من أعطاه إياه من نفسه^(١).

ومن عجيب أمر المنافقين أنهم عند السؤال والحساب يكذبون ويحلفون على الكذب كما كانوا يفعلون في الدنيا، قال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا يَأْتِيَهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

فانظر إلى أقوالهم وأفعالهم، وانظر إلى وعد الله لهم بسؤالهم عن عهدهم معه، وانظر إلى جدالهم ربه عند الحساب، وانظر إلى عاقبة أمر المنافقين، تعرف أن المنافقين من شر العباد.

ويلاحظ أن ذكر السؤال في حق المنافقين رغم سيء أفعالهم، وخبث خصالهم لم يرد

(١) جامع البيان، الطبري، ٢٠/٢٢١-٢٢٨.

وأردف: (هذه الآية في أداء الأمانة والحكم عامة في الولاية والخلق، لأن كل مسلم عالم، بل كل مسلم حاكم ووال) (٤).

فالقُرآن هنا إذاً يشير إلى أن الأمانة عامة في كل أمر، وخص بالذكر منها الحكم بعد العموم تنويهاً بكونه أعلى الأمانات شأنًا، وأعظم التكاليف مسؤولية، فإن الولاية العامة تدخل في باب الأمانة باعتبارها رأس الأمانات والتي عليها قوام حياة الناس ومعاشهم، وصلاح دنياهم وأخراهم؛ وفي الحديث عن أبي ذر قال: (قلت يا رسول الله ألا تستعملني قال فضرب بيده على منكبي ثم قال: يا أبا ذر إنك ضعيفٌ وإنها أمانةٌ وإنها يوم القيامة خزىٌ وندامةٌ إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها) (٥).

والولاية مسؤولون على مختلف مواقعهم ومراتبهم ومسؤولياتهم، من كان منهم أمير الناس، ومن كان عبدًا عاملاً في مال سيده؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كلكم راع وكلكم مسئولٌ عن رعيته، الإمام راعٍ ومسئولٌ عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله وهو مسئولٌ عن رعيته، والمرأة راعيةٌ في بيت زوجها ومسئولةٌ عن رعيته، والخادم راعٍ في مال سيده ومسئولٌ عن رعيته)، قال: وحسبت أن قد قال والرجل راعٍ في مال أبيه

(٤) أحكام القرآن، ابن العربي، ١/ ٥٧٢.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كراهية الإمارة بغير ضرورة، رقم ٣٤١٠.

بالرعية، وأوصى الرعية بالطاعة، وبمثل هذا القول قال زيد بن أسلم (١).

ورأت طائفة من المفسرين أن المقصود بها العموم.

قال ابن كثير: وهذا يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله عز وجل على عباده، من الصلوات والزكوات، والكفارات والندور والصيام، وغير ذلك، مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما ياتمون به بعضهم على بعض من غير اطلاع بينة على ذلك. فأمر الله عز وجل بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة (٢).

ورأت طائفة ثالثة أن المقصود بها قضاء الدين، وردد حقوق الناس (٣).

قال ابن العربي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾: (قال

ابن زيد: قال أبي: هم السلاطين، بدأ الله سبحانه بهم، فأمرهم بأداء الأمانة فيما لديهم من الشيء، وكل ما يدخل إلى بيت المال حتى يوصلوه إلى أربابه، وأمرهم بالحكم بين الناس بالعدل، وأمرنا بعد ذلك بطاعتهم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]،

(١) جامع البيان، الطبري، ٨/ ٤٩٠-٤٩٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٣٣٨.

(٣) جامع البيان، الطبري، ٨/ ٤٩٣.

ومستوول عن رعيته، وكلكم راعٍ ومستوول عن رعيته^(١).

إلا أن أشد الناس مسؤولية الذي يكون على رأس الناس، وهو أمير العامة، ويتأكد عظم هذه المسؤولية بما توعد به ربنا سبحانه فقال: ﴿يَنْدَاؤُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وبما حذر منه رسولنا صلى الله عليه وسلم الحاكم الظالم الجائر أو الغاش لرعيته، أو المحتجب دون خلتهم وحاجتهم؛ فقال: (ما من والٍ يلي رعيةً من المسلمين فيموت وهو غاشٍ لهم إلا حرم الله عليه الجنة)^(٢).

وقال صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكهم)، قال أبو معاوية: (ولا ينظر إليهم، ولهم عذابٌ أليمٌ، شيخٌ زانٍ، ومملكٌ كذابٌ، وعائلٌ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، رقم ٨٤٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، رقم ٣٤١٤، عن عبد الله بن عمر.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح، رقم ٦٦٤٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار، رقم ٢٠٧. عن معقل بن يسار.

مستكبر)^(٣).

والقرآن مع بيان مهام المسؤولين من الولاة، فإنه يوضح المزالق التي تسبب لهم الكبوات والنكبات لا سيما في ولاية العامة. قال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْمُكَّارِ لِنَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

قيل: هي في ولي اليتيم، يرفع المال إلى الحاكم يريد أكل شيء منه بحكمه، فهي في الولاية الخاصة، وقيل معناها: لا تحاجوا عند الحكام فترفعوا إليهم حججكم وأنتم تعلمون أن هذه الأموال التي أخذتموها من الناس إنما أكلتموها واغتصبتموها، وأنكم آثمون فيها، فإن حكم الحاكم أو القاضي لا يحل حراماً، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما أنا بشرٌ، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعضٍ، فأحسب أنه صدق، فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعةٌ من النار فليأخذها أو فليتركها)^(٤).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكهم ولهم عذاب أليم، رقم ١٥٩. عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب إثم من خاصم في باطل وهو

المسؤولين هم: جميع من استرعي أو اتتمن على رعية أو مال قل ذلك أو كثر. وهم مع التخويف من إهمال مسؤولياتهم موعودون إن أدوها ورعوها حق رعايتها بالأجر العظيم والفضل الكبير؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن المقسطين عند الله على منابر من نورٍ عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا)^(٢).

ويعرف أخذ الأمانة بحقها، وأداء الذي على المرء فيها بالشرع، فإن الحكم بالعدل إنما يكون على وفق ما أنزل الله، لا أهواء الخلق.

قال سبحانه: ﴿وَأَن أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرْتَهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْتُمْ أَنَّا يَبْدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الفرق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، رقم ٣٤١٢. عن عبد الله بن عمرو.

وقيل: إن المعنى: لا تصانعوا بأموالكم الحكام وترشوهم ليقضوا لكم على أكثر منها.

قال ابن عطية: وهذا القول يترجح؛ لأن الحكام مظنة الرشاء إلا من عصم وهو الأقل، وأيضاً فإن اللفظين متناسبان: تدلوا من إرسال الدلو، والرشوة من الرشاء، كأنه يمد بها ليقضي الحاجة. ويقوي هذا عطف تدلوا على تأكلوا في موضع الجزم.

وفي مصحف أبي: (ولا تدلوا) بتكرار حرف النهي، وهذه القراءة تؤيد جزم تدلوا في قراءة الجماعة.

وقيل: (تدلوا) في موضع نصب على الظرف، والذي ينصب في مثل هذا عندسيبويه (أن) مضمرة، والهاء في قوله (بها) ترجع إلى الأموال، وعلى القول الأول إلى الحجة ولم يجز لها ذكر، فقوي القول الثاني لذكر الأموال، والله أعلم.

والرشوة معروفة، والرشوة بالضم مثله، والجمع رشى ورشى، وقد رشاه يرشوه، وارتشى: أخذ الرشوة، واسترشى في حكمه: طلب الرشوة عليه^(١).

من جملة ما سبق يظهر أن الولاية

يعلمه، رقم ٢٢٩٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، رقم ٣٢٣٨. عن أم سلمة رضي الله عنها.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢/ ٣٤٠.

المسؤول عنه

أولاً: الرسالة:

يسأل الله سبحانه وتعالى عن الرسالة من ناحيتين، والمقصد من سؤاله ليس الاستعلام ولكن ما يترتب عليه.

يسأل الله سبحانه وتعالى المرسلين عن الرسالة من ناحية تبليغها، وناحية الاستجابة لها.

قال تعالى: ﴿فَلَنَسْتَأَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَأَنَّكَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

فيسأل الرسل: هل بلغت الرسالة؟، ويسأل الذين أرسل إليهم: هل بلغتكم الرسالة؟. والسؤال عن الرسالة لا يعني الاستفهام المفضي إلى العلم - كما سبق بيانه - فالله سبحانه وتعالى عالم بما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، ولا لمحاسبة الرسل عن تبليغهم الرسالة لعلمه أنهم صادقون، ولكن لتبكي الكافرين^(١)، ولإقامة الحجة على المكذبين، بأن الرسل بلغوا ما عليهم من الرسالة بلاغاً مبيّناً، إذ أن عدم البلاغ حجة لهم على ترك العمل.

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُنَبِّئَكَ بِمَا لَيْدِكُمْ وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧].

(١) معالم التنزيل، البغوي، ٦/٣٢١.

فيتحقق على الكافرين السؤال، ويحتاروا في الإجابة.

قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ [٦٥] ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [٦٦] [القصص: ٦٥-٦٦].

وثبت هذا أيضاً في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [٧] ﴿لَسْتَكَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [٨] [الأحزاب: ٧-٨].

قال القرطبي: فيه أربعة أوجه: أحدها: ليسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم، وفي هذا تنبيه، أي إذا كان الأنبياء يسألون فكيف من سواهم؟ الثاني: ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم.

الثالث: ليسأل الأنبياء عليهم السلام عن الوفاء بالميثاق الذي أخذه عليهم.

الرابع: ليسأل الأفواه الصادقة عن القلوب المخلصة^(٢).

وقال الطبري: يقول تعالى ذكره: أخذنا من هؤلاء الأنبياء ميثاقهم كما أسأل المرسلين عما أجابتهم به أممهم، وما فعل قومهم فيما أبلغوهم عن ربهم من

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/١٢٨.

عَلَيْهِ، وَكُلِّ مَا بَيْنَ الْعِبَادِ مِنَ الْمَوَائِقِ فِيهِ
عُهُودٌ^(٢).

وقد صرح القرآن بالسؤال عن العهد؛
فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ
مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

قال ابن عاشور: أمروا بالوفاء بالعهد،
والتعريف في العهد للجنس المفيد
للاستغراق^(٣)؛ فيشمل العهد مع الله ومع
الناس. فيدخل في ذلك ما بين العبد وربه،
وما بين العباد بعضهم البعض. وقد رتب
سبحانه على الوفاء بالعهد أجزل العطاء،
كما رتب على إخلافه أشد الوعيد.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا
يَبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا
يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ
فَسَبُؤُهُ إِجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ
مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُقْطَعُوا
وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ
الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وتفصيل ذلك كالتالي:

١. العهد مع الله.

المراد بعهد الله: كل عهد يوثقه الإنسان
مع ربه^(٤).

وفي القرآن أتى الأمر واضحًا جليًا
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٣/٢٣٨.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٩٧/١٥.

(٤) المصدر السابق ٢١/٢٨٩.

الرسالة^(١).

إن الله سبحانه يسأل الرسل عن إبلاغ
الرسالة، ويسأل المرسل إليهم عن وصولها
لإقامة الحجة والبينة والبرهان على وصول
الرسالة وتبليغها بأحسن بيان.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ نَصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ
بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ
إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧].

فلاحتجاج بانتفاء البلاغ سائغ، فكان
سؤال الرسل عن الرسالة حجة في وصولها
إلى المرسل إليهم، وكان سؤال المرسل
إليهم عنها للتقرير والتبكيث.

قال سبحانه: ﴿كَفَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ
أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا
﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ
لَوْ سَوَّيْ لَهُمُ الْأَرْضَ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَدِيثًا﴾
[النساء: ٤١ - ٤٢].

وقدم سبحانه سؤال المرسل إليهم،
ليكون جواب الرسل عن الرسالة
شهادة عليهم، كما في قوله سبحانه:
﴿فَلَنَسْتَأَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَأَنَّ
الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

ثانيًا: العهد مع الله ومع الناس:

قال الزجاج: العهد كل ما عُوهدَ اللهُ

(١) جامع البيان، الطبري، ٢٠/٢١٣.

بالوفاء بعهد الله؛ قال سبحانه: ﴿وَيَعِدُ اللَّهُ أَوفُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

أي: أوفوا بوصية الله التي أوصاكم، بأن تطيعوه فيما أمركم به ونهاكم، وأن تعملوا بكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فهذا يكون الوفاء بعهد الله^(١).

وأتى التحذير والوعيد والتهديد من الإخلال بالعهد بأن الله عز وجل سيسأل عن عهده سبحانه الذين عاهدوه^(٢).

قال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْتُوا الْآيَاتِ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ [الأحزاب: ١٥].

وقد تضمنت الآية مع التهديد: الوعد والتأكيد بأن الله سائل عن العهد لا محالة^(٣)، وأن سؤاله سبحانه عن العهد يكون تبكيثاً لناقضه^(٤).

قال الطاهر بن عاشور: وعهد الله المأمور بالإيفاء به هو كل عهد فيه معنى الانتساب إلى الله الذي اقتضته الإضافة، إذ الإضافة هنا يصح أن تكون إضافة المصدر إلى الفاعل، أي: ما عهد الله به إليكم من الشرائع، ويصح أن تكون إلى مفعوله، أي: ما عاهدتم الله أن تفعلوه والتزمتموه وتقلدتموه، ويصح أن تكون الإضافة لأدنى

ملازمة، أي: العهد الذي أمر الله بحفظه، وحذر من ختره، وهو العهود التي تعتقد بين الناس بعضهم مع بعض سواء كان بين القبائل أم كان بين الآحاد.

ولأجل مراعاة هذه المعاني الناشئة عن صلاحية الإضافة لإفادتها عدل إلى طريق إسناد اسم العهد إلى اسم الجلالة بطريق الإضافة دون طريق الفعل، بأن يقال: وبما عاهدتم الله عليه، أو نحو ذلك مما لا يحتمل إلا معنى واحداً.

وإذ كان الخطاب بقوله: (تعالوا) للمشركين تعين أن يكون العهد شيئاً قد تقررت معرفته بينهم، وهو العهود التي يعقدونها بالموالاتة والصلح أو نحو ذلك، فهو يدعوهم إلى الوفاء بما عاهدوا عليه. وأضيف إلى الله لأنهم كانوا يتحالفون عند التعاقد ولذلك يسمون العهد حلفاً.

فالآية آمرة لهم بالوفاء، وكان العرب يتمادحون به. ومن العهود المقررة بينهم: حلف الفضول، وحلف المطيبين، وكلاهما كان في الجاهلية على نفي الظلم والجور عن القاطنين بمكة، وذلك تحقيق لعهد الله لإبراهيم عليه السلام أن يجعل مكة بلدًا آمنًا ومن دخله كان آمنًا.

وقد اعتدى المشركون على ضعفاء المؤمنين وظلموهم مثل عمار، وبلال، وعمار بن فهيرة، ونحوهم، فهو يقول لهم

(١) جامع البيان، الطبري، ١٢/٢٢٥-٢٢٦.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢١/٢٨٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/٣٩٠.

(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/٨٢٢.

البر بنذر أو يمين فهو عهد عاهد ربه عليه (٢).
وبين القرآن أن من نقض العهد مع
الله إنما يضر بذلك نفسه، وأن من أوفى به
يؤتيه الله الأجر العظيم على ذلك، كما في
الآية السابقة، وكما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ
كَفَرَ فَإِنَّمَا يَنكُرُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ
عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

وبين في موضع آخر: أن نقض الميثاق
والعهد يستوجب اللعن، وذلك في قوله
تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ
وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة:
١٣] (٣).

وجزاءه سبحانه عن الوفاء بالعهد: توفيه
الموفين بعهدهم معه سبحانه الجزاء الفاضل
الذي وعدهم حال الوفاء بعهد، فجعله
كالعهد منه سبحانه الذي يقابل العهد.

قال سبحانه: ﴿يَبْنَؤُا بِنَزْوَالِ أَذْكَرُوا نَعْمَتِي
الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ
وَأَتَىٰ قَارِهُونَ﴾ [البقرة: ٤٠].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا
بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ﴾ أمر وجوابه، وعهد
الله المذكور هنا قيل: هو عام في جميع
أوامره ونواهيه ووصاياه فيدخل في ذلك
ذكر محمد صلى الله عليه وسلم الذي في
التوراة وغيره، وهذا قول الجمهور من

فيما يتلو عليهم أن خفر عهد الله بأمان
مكة، وخفر عهدكم بذلك أولى بأن تحرموه
من مزاعمكم الكاذبة فيما حرمتهم وفصلتم،
فهذا هو الوجه في تفسير قوله: ﴿وَبِعَهْدِ
اللَّهِ أَوْفُوا﴾ وتقديم المجرور على عامله
للاهتمام بأمر العهد وصرف ذهن السامع
عنه، ليتقرر في ذهنه ما يرد بعده من الأمر
بالوفاء، أي: إن كنتم ترون الوفاء بالعهد
مدحة فعهد الله أولى بالوفاء وأنتم قد
اخترتموه (١).

والقرآن يخبرنا عن أصناف من الناس
عاهدوا الله من عند أنفسهم ابتداء، لئن
أتاهم من فضله ليتصدقن، يرجون بذلك
نواله وفضله.

قال سبحانه: ﴿وَمَنْ مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ
لَيْسَ آتِنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ
الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة: ٧٥].

لكنهم أخلفوا عهدهم فأعقبهم الله
سبحانه وتعالى نفاقاً في قلوبهم جزاء وفاقاً.
قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا آتَتْهُمْ مِنْ فَضْلِهِ
يَخْلُؤْا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٦﴾ فَأَعَقَبَهُمُ
نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِنَّ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ
مَا وَعَدُوهُ وَمَا كَانَ بِكَاذِبِينَ ﴿٧﴾﴾ [التوبة: ٧٦-٧٧].

فدل على أن ما يلتزمه الإنسان من عمل

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٨/ ١٧٠.

(٣) أضواء البيان، الشقيطي، ٢/ ٤٣٩.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨/ ١٦٨.

العلماء وهو الصحيح وعهده سبحانه وتعالى هو أن يدخلهم الجنة. وما طلب من بني إسرائيل من الوفاء بالعهد هو مطلوب منا - أمة محمد صلى الله عليه وسلم - فقال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾^(١).

ومع أن وفاءه سبحانه بعهده ووعدته تفضل منه سبحانه إلا أنه أتى به في صورة جواب الشرط ويدل على اللزوم، قال الطبري: وقد كان بعض أهل العربية يوجه معنى قوله: ﴿وَعَدًا مَسْئُولًا﴾ من قوله سبحانه: ﴿لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَلِيلِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ [الفرقان: ١٦]. إلى أنه معني به: وعدًا واجبًا، وذلك أن المسئول واجب، وإن لم يسأل كالدين، ويقول: ذلك نظير قول العرب، لأعطينك ألفًا وعدًا مسئولا، بمعنى واجب لك فتسأله. وعن ابن عباس ﴿كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعَدًا مَسْئُولًا﴾ قال: فسألوا الذي وعدهم وتجزوه^(٢).

فالوفاء بالعهد مع الله يأتي بالكرامة، ويكون عاقبة السؤال عليه خيرا، أما الحنث والنكث فإن السؤال عن العهد به يكون تبكيتا للمسؤول، والإخبار عن ذلك في القرآن تخويف وتحذير من النكث بالعهد

مع الله سبحانه.

٢. العهد مع الناس.

إن القرآن كما يخبر عن السؤال عن العهد مع الله سبحانه، يشير إلى السؤال عن العهد مع الناس.

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ

كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

والوفاء بالعهد مع الناس من مكارم الأخلاق ومحاسن الخلال التي لا خلاف فيها بين أهل العقول، لذلك فإن ربنا سبحانه يوصي ويوجب على أمة الإسلام الوفاء بالعهد، ويحذر سبحانه من النكث بالعهد، وعدم الوفاء بالعقود، وأبلغ التحذير جعل العهد مسؤولا عنه، محاسبًا عليه.

قال الإمام أحمد رحمه الله: العهد شديد في عشرة مواضع من كتاب الله، وذكر: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾^(٣).

وفي موضع آخر من القرآن قال سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾^(١١) [النحل: ٩١].

وهو أمر من الله سبحانه وتعالى لعباده أن يوفوا بعهد الله إذا عاهدوا، وظاهر الآية أن عهد الله المذكور شامل لجميع العهود فيما

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣٣٢/١.

(٢) جامع البيان، الطبري، ٢٤٦-٢٤٧.

(٣) المغني، ابن قدامة، ٤٠٠/٩.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْقِيُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [الرعد: ٢٥].

والتوكيد: التوثيق وتكرير الفتل^(٤).

وفي قوله سبحانه: ﴿وَعَهْدَ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

أشار بعض أهل التفسير إلى أن العهد هنا عام في جميع ما عهده الله إلى عباده. واحتمال أن يراد به العهود بين الناس، وإضافة ذلك العهد إلى الله سبحانه هو من حيث كونه من أمر بحفظه والوفاء به^(٥).

والوفاء بالعهد: هو القيام بحفظه على الوجه الشرعي والقانون المرضي، إلا إذا دل دليل خاص على جواز النقض^(٦).

والعقد الذي يجب الوفاء به ما وافق كتاب الله وسنة رسول الله، فإن خالفهما فهو رد لا يجب الوفاء به ولا يحل^(٧).

ثالثاً: القرآن:

القرآن بيان للرسول وللأمة فيما بها إليه حاجة، وهو تذكرة بأمر الدين والعمل به، وهو شرف لمن عمل به، والقرآن مسؤول عنه.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٤/٢٦١-٢٦٢.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/١٣٧.

(٦) فتح القدير، الشوكاني، ٣/٨٢٢.

(٧) فتح القدير، الشوكاني، ٣/٣٤٩.

بين العبد وربّه، وفيما بينه وبين الناس^(١).

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ لفظ عام لجميع ما يعقد باللسان ويلتزمه الإنسان بالعدل والإحسان^(٢).

والقرآن ينبه إلى ضرورة الوفاء بالعهد والعقد، والذي ينشأ بموجبه حق للمعاهد، لاسيما إذا كان مؤكداً وموثقاً بالأيمان، ويحذر من نقضه بعد توثيقه بالأيمان وتغليظه بأن جعل الله سبحانه عليه راعياً، فأمر بعدم مخالفة الأمر الذي تم التعاقد عليه، ونهى عن الحث في الأيمان المبرمة المؤكدة^(٣).

ونقض الأيمان: إبطال ما كانت لأجله، فالنقض إبطال المحلوف عليه لا إبطال القسم، فجعل إبطال المحلوف عليه نقضاً لليمين في قوله: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْتَانَ﴾ تهويلاً وتغليظاً للنقض؛ لأنه نقض لحرمة اليمين.

﴿بِعَهْدِ تَوْكِيدِهَا﴾ زيادة في التحذير، وليس قيداً للنهي بالبعدية، إذ المقصود أيمان العهد والبيعة، و (بعد) هنا بمعنى (مع)، إذ أثرهما واحد هنا، وهو حصول توثيق الأيمان وتوكيدها، كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُ الْإِسْمَ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾

[الحجرات: ١١].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، ٢/٤٣٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/١٦٩.

(٣) جامع البيان، الطبري، ١٧/٢٨١.

قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ﴾ يعني: القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١].

فالقرآن ذكر وذو ذكر. وأرجح الأقوال في معنى كون القرآن ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم ولقومه: أن القرآن شرف لك ولمن عمل به ممن اتبعك من أمتك؛ فقد قال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَاءً حَسْبَاءً وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يُزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

فيبعد أن يكون فيه شرف لقومه صلى الله عليه وسلم والكافرين، لإخباره سبحانه أن القرآن لا يزيد الظالمين إلا خسارًا والشرف خلاف الخسران. فإن كان ثمة تنويه فالمؤمنون أحق به.

وقد جاء في الأثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين).

ومنها كذلك: أن القرآن بيان لك ولأمتك فيما بكم إليه حاجة. وتذكرة تذكرون به أمر الدين وتعملون به^(١).

إن القرآن هو ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يستمسك بالذي أوحى إليه، ولا

يعبأ باستجابة قومه له، مهما كان اختيارهم، وأي مصير من مصائر السابقين كان مآلهم. وهو تذكير لقومه بمآل السابقين، وأحوال الكافرين، ومصائر المكذبين، وقضاء الله سبحانه فيهم. وسيكون السؤال للرسول عن البلاغ، وسيكون السؤال لقومه المرسل إليهم عن إجابتهم وعن وصول هذه التذكرة إليهم؛ كما قال سبحانه: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

فالمعنى الظاهر هو: أن القرآن تذكير لك ولقومك، ولا يعني تخصيص قومه بالذكر نفي من سواهم، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

وكقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وسوف تسألون عن هذا القرآن وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له^(٢).

وقيل: سوف تسألون عن الشكر عليه وقيل: تسألون أنت ومن معك على ما آتاك وقيل: تسألون عما عملتم به^(٣).

وكل هذه المعاني ترجع إلى أن القرآن مسؤول عنه، يسأل عنه الرسول صلى الله عليه وسلم ويسأل عنه من استجاب

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٩٣/١٦، فتح القدير، الشوكاني ٣٤١/٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢٢٩/٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٩٣/١٦.

وقيل: هم كفار قريش اقتسموا طرق مكة ومدخلها ليصدوا الناس عن الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته بأن يقول فريق منهم للقادمين للحج والحرم: هو شاعر، وآخرون: هو ساحر، وفريق ثالث: هو كاهن.

وقيل: لأنهم -كفار قريش- اقتسموا القرآن بأن سماه بعضهم شعراً، وبعضهم كهانة، وبعضهم أساطير الأولين^(٢).

وقال آخرون: ﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾ المتحالفين^(٣).

و﴿عِضِينَ﴾ أي: أعضاء متفرقة، بمعنى قسموه أوزاعاً فأمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، فهو كقوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢].

وقيل: ﴿عِضِينَ﴾ بمعنى مقدوفاً بيهتان، وهو قول الكفار: شعر، كهانة، وسحر. وقيل معناه: السحر^(٤).

والظاهر أن السؤال في حق كل هؤلاء قائم، فإن معظم الكفار كانوا يقرون ببعض ما في القرآن مع كفرهم به، فهم يقرون بأن الله هو الرب الخالق الرازق المدبر؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَعَلَّ

(٢) جامع البيان، الطبري، ١٧/١٤٣-١٤٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/٥٤٧.

(٤) جامع البيان، الطبري، ١٧/١٤٧-١٤٨.

له وعمل به، ومن أعرض عنه وصد كل بحسب حاله؛ فأما المستجيبون فيسألون عن مقدار استجابتهم، والإخبار عن السؤال في حقهم حض وحفز للعمل، وأما من أعرض وصد فالإخبار عن السؤال في حقه تهديد ووعيد، وسؤاله عن القرآن سؤال توبيخ وزجر وتقريع^(١).

وكما قرر القرآن سؤال أمة الدعوة والإجابة عن القرآن وما فيه من الذكر والتذكرة، فإنه قرر كذلك سؤال المكذبين به الذين عابوه، وسخروا منه.

قال سبحانه: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾^(١٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿١١﴾ فَوَرَّيكَ لَنَسْتَلِنَّهُمُ أَجْمَعِينَ ﴿١٢﴾ عَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ [الحجر: ٩٠-٩٣].

قيل: إن المقتسمين هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى آمن كل منهم ببعض الكتاب الذي أنزل إليهم وكفروا ببعضه، وكفر اليهود بالإنجيل، وكفروا جميعاً بالقرآن.

وقيل: سمي أهل الكتاب بالمقتسمين، لأن بعضهم كان يقول لبعض استهزاء بالقرآن هذه السورة لي ويقول الآخر هذه السورة لي.

وقيل: إن المقتسمين قوم صالح الذين تقاسموا بالله لبيئته وأهله -وهو بعيد-

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٥/٢٢٠.

يُوقُونَ ﴿٦٦﴾ [العنكبوت: ٦٦].

بل إنهم يقرون بأن الله سبحانه خلقهم هم أنفسهم؛ قال سبحانه: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّ يُوقُونَ﴾ ﴿٨٧﴾ [الزخرف: ٨٧].

سمعه وبصره وفؤاده^(١)؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

والقفو في اللغة هو اتباع الأثر يقال: قفت فلانا أقفوه وقفيته وأقفيته إذا اتبعت أثره وبه سميت القافية لتبعمهم الآثار، مأخوذ من القفا كأنه يقفو الأمور أي: يكون في أقفائها يتبعها ويتعرفها. ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ تحتل وجهين:

أحدهما: أن يكون الإنسان هو المسئول عن السمع والبصر والفؤاد؛ لأنه يعمل بها إلى الطاعة والمعصية.

الثاني: أن السمع والبصر والفؤاد تسأل عن الإنسان؛ ليكونوا شهودًا عليه أو له بما فعل من طاعة وما ارتكب من معصية^(٢). وقوله: ﴿كُلُّ أُولَئِكَ﴾ أي: كل هذه الجوارح والأعضاء. وعلى القول الأول يرجع (أولئك) إلى أربابها^(٣).

إن الجوارح رعية استرعاها الله الإنسان، وهي شاهدة عليه تنطق بما عمل بها. لذلك فإنه ينبغي للإنسان أن يحرص أشد الحرص ألا يفترى الكذب ويشهد الزور، فيقول رأيت ولم ير، وسمعت ولم يسمع، وعلمت

وأقر آخرون بأن ما في القرآن موافق لما في الكتب السماوية التي قبله لكنهم قالوا إن الذي يعلم رسول الله بشر عنده علم الكتاب؛ قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَعَلِمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿١٠٣﴾ [النحل: ١٠٣].

فرد عليهم القرآن فريتهم.

وعلى هذا فإن السؤال يمكن أن يكون شاملًا لكل من عضه القرآن، فإنهم جميعًا تحالفوا على حربه فقدفوه بالبهتان، بأن قال بعضهم: هو كلام بشر، وقال آخرون: هو شعر أو كهانة أو سحر، والله سبحانه سألهم جميعًا عن أعمالهم تلك سؤال زجرتيكي وتقرع. كما قال سبحانه: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ [الأنبياء: ٥٠].

رابعًا: الجوارح:

إن الجوارح هي نعم من نعم الله الكثيرة الجليلة على عباده، وهي أدوات العمل ووسائل إنفاذ الإرادة، والله سبحانه قرر في كتابه العزيز أنه سائل الإنسان عما حواه

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/٢٥٩.

(٢) النكت والعيون، الماوردي، ٤/٢٤٣.

(٣) معالم التنزيل، البغوي، ٥/٩٢-٩٣.

وإطلاق أدواتها، ومصداقه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته)^(٤).

فالجوارح والحواس والقلب والعقل جميعاً أمانة يسأل الله سبحانه وتعالى عنها يوم القيامة^(٥)، كما تسأل الجوارح عن عمل الإنسان وتشهد عليه، فهي رعية ضمن ما استرعاه الله سبحانه وتعالى، وحذر من هذه المسؤولية وأكد عليها بإثبات السؤال عنها يوم القيامة^(٦).

وفي الحديث عن شكل بن حميد، قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله، علمني تعوداً أتعود به، قال: فأخذ بكتفي، فقال: (قل اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي، ومن شر بصري، ومن شر لساني، ومن شر قلبي، ومن شر مني) يعني: فرجه^(٧).

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الغيبة، رقم ٤٢٣٨.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١٣٢٣/٢، رقم ٧٩٨٤.

(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/٢٢٢٧.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/٢٥٩.

(٧) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الوتر، باب في الاستعاذة، رقم ١٣٣٠، والترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب ما جاء في عقد التسيح باليد، رقم ٣٤٣٨.

ولم يعلم، فإن الله تبارك وتعالى سائل هذه الأعضاء عما قال صاحبها وادعاه، من أنه سمع أو أبصر أو علم، فتشهد عليه جوارحه عند ذلك بالحق^(١).

ويحتمل أن يكون المقصود النهي عن تقفي وتتبّع وتعريف الأخبار وأحوال الخلق، فإن السمع والبصر أدوات تتبعها، والفؤاد أداة تعقلها وتدبرها وتخيلها، فيكون النهي عن القصد وهو تقفي الأخبار والعورات، ويكون التحذير عن إعمال أدواته وهي السمع والبصر في التتبّع، والفؤاد في الإدراك، والله أعلم.

يدل السؤال عن الجوارح على النهي عن القول بلا علم، وعن سماع اللغو وعن النظر إلى الحرام، والحكم على الظن، وأنه سبحانه يسأل العبد عن أعضائه يوم القيامة، فيشهدن عليه^(٢).

ونظيره قوله سبحانه في حادثة الإفك عمن تساهلوا في النقل والتحدث بما لم يثبتوا منه: ﴿إِذْ نَفَقْتُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّجْوَى وَقَوْلُونَ يَا قَوْمَنَا مَا لَنَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

فإن أولئك اتبع بعضهم أثر بعض، وحكى بعضهم عن بعض تقليداً^(٣). كذلك نهى ربنا سبحانه عن تتبع الأخبار والعورات،

(١) جامع البيان، الطبري، ١٧/٤٤٦-٤٤٩.

(٢) تفسير السمرقندي، ٢/٣١١.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ١١/٢٧٥.

وليس في آية سورة النور السابقة دليل لمن يبطل الاجتهاد، لأن الاجتهاد يفضي إلى نوع من العلم، كما قال ربنا سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَهُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَيَّجَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِسُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ [المستحنة: ١٠].

فأقام سبحانه غالب الظن القائم على البحث والتحري والتثبت -أي: الاجتهاد- مقام العلم وأمر بالعمل به^(١).

خامساً: الأقوال والأعمال:

يمثل الإتيان بالأقوال والأعمال والكف عنها القسم العملي من التكليف، والفعل والكف جميعه مسؤول عنه، فيؤجر الإنسان على ما وافق من ذلك الشرع، ويأثم ويعاقب على ما خالفه.

١. المسؤولية عن الأقوال.

بين الله سبحانه أن الأقوال مسؤول عنها، وساق هذا المعنى في غير آية، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُبْسِتِكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُونَ مِن حِسَابِهِمْ مِن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذُكِّرُوا لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنعام: ٦٨-٦٩].

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢٧٧/١، رقم ١٢٩٢.
(١) مدارك التنزيل، النسفي، ٢/٢٨٦.

وفي هذا الموضع من القرآن الكريم جاءت الإشارة الواضحة بأن الذين يخوضون في آيات الله استهزاء أو سباً أو تكديباً أو تحريفاً أو غير ذلك من أنواع الخوض بالقول مسؤولون محاسبون، وأمر بالإعراض عنهم والصد عنهم والقيام وعدم الجلوس معهم، حال خوضهم، وأشار إلى أن الرضا بفعلهم هذا يدخل الإنسان في التبعة التي رتبها الله سبحانه على فعلهم، وأن من اتقى الله فخافه وأطاعه فيما أمره به واجتنب ما نهاه عنه، فلا تترتب عليه التبعة بعدم الإعراض فيما بينه وبين الله ما دام تركه الإعراض لم يكن عن رضا بما هم فيه من الخوض وكان متقياً، وأن الإعراض فائدته تذكيرهم وتنبههم ليتقوا هذا الفعل ويتحاشوه^(٢).

وقال البعض من أهل التفسير أن المقصود هو أنه ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك، أي: إذا تجنبتهم وأعرضت عنهم. ويعضد القول الأخير آية النساء وهي لاحقة لآية الأنعام، حيث فيها إحالة إلى هذه الآية ومعناها.

قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۗ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي

(٢) جامع البيان، الطبري، ١١/٤٣٦-٤٣٩.

جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ [النساء: ١٤٠].

وقال جماعة من أهل التفسير أن الأمر كان في أوله على آية الأنعام حتى جاءت آية النساء فنسختها^(١).

وفي آية النساء إشارة إلى أن خطر الأقوال يتعدى قائلها إلى مستمعها ما لم ينكر بأن يكره أو يعرض. والجمع إشارة إلى المسؤولية المترتبة التي تستلزم الجمع للحساب. واستدل ابن العربي^(٢) بآية الأنعام على صحة القول بوجوب الخروج من أرض البدعة مثل التي يسب فيها السلف، وهو قول مالك^(٣).

إن من أعظم ما يسأل عنه الإنسان من الأقوال في القرآن الكريم الافتراء؛ وهو الكذب المختلق.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتَسْتَأْذِنَنَّ عَمَّا كُتِبَ تَقَرُّونَ﴾ [النحل: ٥٦].

وفي الآية يخبر الله سبحانه وتعالى عن قبائح فعال المشركين وافتراءهم عليه سبحانه بأن شرعوا دينًا لم يأذن به، وجعلوا له سبحانه أندادًا من الأصنام والأوثان، ثم إنهم بعد ذلك يجعلون نصيبًا مما رزقهم الله قرايين لهذه الطواغيت التي اتفكوها، بل ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِثْلَ ذُرًّا مِنْ الْحَبِّ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ٢٧٨.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي، ١/ ٦١١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ٣٥٠.

فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ [الأنعام: ١٣٦].

كل ذلك من باب الافتراء والزعم والادعاء المجانب للعلم المتابع للهوى والشيطان، فأقسم الله سبحانه بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه واتفكوه تبكيًا وتوبيخًا، وليقابلنهم بشر ما عملوا جزاء وفاقًا^(٤).

وهذه الآية تدل على أن أشنع الأقوال ما أسس للإشراك بالله، وأن الكلام في مسائل الألوهية والربوبية والأسماء والصفات عن جهل وهوى مرداة ومهلكة. ومن هذا الباب وصف الكفار الملائكة بأنهم بنات الله.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنْتِنَا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ ﴿١١﴾ [الزخرف: ١٩].

فجعل كلامهم في هذا الباب من باب الشهادات، وتوعدهم بالسؤال والحساب عن شهادتهم التي أتوا بها عن غير وجه حق، إذ لم يشهدوا خلق الملائكة ولم يحضروا ذلك، فكيف يقررون صفتهم وهم يدفعون كلام الله ولا يقبلونه، وهم لم يشهدوا خلق الملائكة؟، فذلك الذي استحقوا به سؤال

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٥٧٧.

التبكيك والتوبيخ.

فالسنة قد أيدت معنى المسؤولية عن الأقوال، بل وأكدت أن أعظم ما يدخل الناس النار هو الأقوال. فعن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار. قال:

(لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسيرٌ على من يسره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت). ثم قال: (ألا أدلك على أبواب الخير؛ الصوم جنةٌ والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل). قال ثم تلا ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦-١٧].

ثم قال: (ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده وذروة سنامه). قلت: بلى يا رسول الله. قال: (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد). ثم قال: (ألا أخبرك بملاك ذلك كله). قلت: بلى يا نبي الله، قال: فأخذ بلسانه، قال: (كف عليك هذا؟). فقلت: يا نبي الله وإننا لمؤاخذون بما نتكلم به فقال: (ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو على

ومن الافتراء زعم الكفار أنهم يحملون أوزار من صبا عن إيمانه، واتبع ما هم عليه من تكذيب البعث بعد الممات والكفر بالثواب والعقاب، وقرر كذبهم وافتراءهم، وتوعدهم وهددهم بالسؤال عن أقوالهم التي هي محض الكذب.

قال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلِيَحْمِلُوا آثْقَالَهُمْ وَأَتْقَالاً مَعَ آثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٢-١٣].

وهذا السؤال عن الأقوال هو في جانب الوعد الباطل الذي لا يمكن ولا يستطاع؛ لأنه لا يملك صاحبه الحكم به.

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من قول الزور أشد التحذير؛ فقال: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر) ثلاثاً؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (الإشراك بالله، وعقوق الوالدين)، وجلس وكان متكئاً، فقال: (ألا وقول الزور)، قال - الراوي وهو أبي بكره رضي الله عنه - : فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت (١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب ما قيل في قول الزور، رقم ٢٤٧٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم ١٢٩. عن أبي

لأنه فوقهم بالملك والقدرة والقهر، ولا يسأل سبحانه عن قضائه وقدره، وجميع من في السماوات والأرض مسئولون عن أفعالهم، ومحاسبون على أعمالهم وهم في سلطانه لا يخرجون عنه^(٣).

ومع هذا التقرير للسؤال عن الأقوال والأعمال، فإنه لا بد من التنبيه على أن الله سبحانه لا يؤاخذ الإنسان على ما صدر منه على سبيل الخطأ أو الإكراه أو النسيان من أقوال وأفعال، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إن الله وضع عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكروها عليه)^(٤).

كما استثنى اللغو في الإيمان. قال سبحانه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

وحديث النفس؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوست به صدورها ما لم تعمل أو تكلم)^(٥).

(٣) المصدر السابق ١٨/٤٢٥.

(٤) أخرجه ابن ماجه، كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، رقم ٢٠٣٥.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١١٩٥/٢، رقم ٧١١٠.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العتق، باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه ولا عتاقة إلا لوجه الله، رقم ٢٣٥٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر

مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم^(١).

٢. المسؤولية عن الأعمال.

صرح القرآن بالسؤال عن الأعمال في غير ما آية؛ فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣].

وفي هذه الآية الكريمة يخبر الله تعالى أنه لو شاء سبحانه لصير الناس كلهم جميعاً جماعة واحدة، وأهل ملة واحدة لا يختلفون ولا يفترون، ولكنه خالف بينهم بحكمته وعلمه، فجعلكم أهل ملل شتى، وفق فريقاً منهم للإيمان به والعمل بطاعته، فكانوا مؤمنين، وخذل أقواماً فحرمهم توفيقه، فكانوا كافرين، وأنه سبحانه سيسأل الجميع يوم القيامة عما عملوا في الدنيا فيما أمرهم به ونهاهم عنه، فيجازيهم بما عملوا: المطيع بطاعته، والعاصي بمعصيته^(٢).

وقال سبحانه: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

فهو سبحانه سائل جميع من في السماوات والأرض من عباده ومحاسبهم؛

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم ٢٥٥٨. قال الترمذي: حسن صحيح.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٩١٣/٢، رقم ٥١٣٦.

(٢) جامع البيان، الطبري، ١٧/٢٨٧.

سادسًا: نعيم الدنيا:

قال سبحانه: ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

أي: ثم ليسألكم الله عز وجل عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا: ماذا عملتم فيه، من أين وصلتم إليه، وفيم أصبتموه، وماذا عملتم به؟^(١).

وقال: اختلف أهل التأويل في ذلك النعيم ما هو؟

فقال بعضهم: هو الأمن والصحة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ثم ليسألون يومئذ عما أنعم الله به عليهم مما وهب لهم من السمع والبصر وصحة البدن. وفيم استعملوها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال آخرون هو العافية، وقال آخرون: بل عنى بذلك ما يطعمه الإنسان أو يشربه^(٢).

وقال ابن كثير: أي: ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك^(٣).

وقال مجاهد: عن كل لذة من لذات الدنيا^(٤).

بالقلب إذا لم تستمر، رقم ١٨٦.

(١) جامع البيان، الطبري، ٥٨١/٢٤.

(٢) المصدر السابق ٥٨١/٢٤-٥٨٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤٧٤/٨.

(٤) المصدر السابق ٤٧٧/٨.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ)^(٥).

ومن الغبن أن لا يقوم الإنسان بواجب هاتين النعمتين وهو الشكر، والاستفادة منهما في التزود ليوم المعاد. والذي يظهر أن هذه الآية الواردة في السؤال عن النعيم مرتبطة بما قبلها من الآيات في السورة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكُفْرُ الَّذِي كَفَرَ بِهٖ يَوْمَئِذٍ إِنَّهٗ سَئِئٌ مَّا يُعْمَلُ ۚ ذُرِّيَّتُم مَّقَابِرٌ ۚ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۚ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۚ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۚ ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۚ﴾ [التكاثر: ١-٨].

فالله سبحانه يخبر أن التكاثر والمنافسة والحرص على الاستزادة من الأموال والأولاد والنعم التي يظن الإنسان في الدنيا أنها النعيم، يلهي عن الاستعداد ليوم المعاد، حيث النعيم الحقيقي المقيم، حتى إذا جاء الموت والإنسان غير مستعد للأخرة وهو في شغل وغفلة عنها، أتاه الخبر اليقين في قبره عن مآله في الجحيم ورآه جزاءً وفاقاً لسوء صنيعه، ثم يوم القيامة يضلّى سعيراً، ويسأل حينئذ تبكيّاً وتوبيخاً عن النعيم الذي

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب لا عيش إلا عيش الأخرة، رقم ٥٩٦٠.

حازه: هل هو نعيم؟
فالسؤال إذاً يكون بمعنى: هل رأيت نعيمًا قط؟
أي: يكون عن ذوق النعيم نفسه، لا عن شكر النعم التي في الدنيا، وفي الحديث عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغةً، ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط، هل مر بك نعيمٌ قط فيقول: لا والله يا رب. ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغةً في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قط، هل مر بك شدةً قط؟ فيقول: لا والله يا رب ما مر بي بؤسٌ قط، ولا رأيت شدةً قط)^(١).

والمعنى: إن الإنسان إذا رأى الجحيم عيانًا، وتيقن مقعده في النار لم ير ما كان فيه من نعيم الدنيا شيئًا - قليلاً كان أو كثيرًا -، وبداهة من سيئات عمله ما يتلاشى معه أي نعيم ذاقه، وأي نعم حازها في الدنيا.

سابعًا: الولاية العامة والخاصة:
إن القرآن الكريم لم يجعل مسئوليات العباد منحصرة في ذواتهم، بل جعل بعضهم قائمًا على تولي أمور بعض، وجعل هذه الولاية مسئوليات معهود بها يقوم بها البعض لصالح حال آخرين. كما في الحديث: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)^(٢).

قال العلماء: الراعي هو الحافظ المؤمن الملتزم صلاح ما قام عليه وما هو تحت نظره، ففيه أن كل من كان تحت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه والقيام بمصالحه في دينه ودنياه ومتعلقاته^(٣).

وبهذا فإنه لا يكاد يخلو إنسان مكلف من مسؤولية عن ولاية. والولاية إما أن تكون مسؤولية أمر يتعلق بالجماعة المسلمة عموماً فهي ولاية عامة، وإما أن تكون مسؤولية عن فرد، أو مجموعة مخصوصة فهي ولاية خاصة.

أما الولاية العامة فهي التي تقوم على مصالح العامة، وهي الإمامة والإمارة، فتشمل الحكام وأولي العلم والأمراء والوزراء وغيرهم.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره في قوله سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْلَمُوا عَدْلَ عُنُقِكُمْ﴾^(١)، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار وصبغ أشدهم بؤسًا في الجنة، رقم ٥٠٢٦.

تَوَدُّوا الْأَمْتَنَتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴿٥٨﴾ [النساء: ٥٨]: هذا خطاب لولاية المسلمين خاصة، يتناول النبي صلى الله عليه وسلم وأمرائه ومن بعدهم (١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

قال القرطبي: وهذا خطاب للولاية والأمرء والحكام، ويدخل في ذلك بالمعنى جميع الخلق (٢).

وتشمل المسؤولية عن الولاية العامة قسمة الأموال، ورد الظلمات، والعدل في الحكومات (٣).

وقد ذهب جمع من المفسرين على أن الآية عامة في جميع الناس، فهي كما تتناول الولاية، تتناول من دونهم من الناس في حفظ الودائع والتحرز في الشهادات وغير ذلك، كالرجل يحكم في نازلة ما ونحوه، والصلاة والزكاة وسائر العبادات أمانة الله تعالى (٤).

ومن أهم أركان المسؤولية عن الولاية العامة: العدل والإحاطة بالنصح وعدم غش الرعية؛ قال صلى الله عليه وسلم: (إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل - وكلنا يديه يمين - الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٥٥/٥.

(٢) المصدر السابق ٢٥٨/٥.

(٣) المصدر السابق ٢٥٦/٥.

(٤) المصدر السابق ٢٥٥/٥-٢٥٦.

وما ولوا) (٥).

وقال عليه الصلاة والسلام: (ما من وإل يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة) (٦).

وفي رواية مسلم: (ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة) (٧).

في آية النساء السابقة دليل عظيم وبينه واضحة على المسؤولية عن الولاية العامة، فالأمر - كما تقرر سلفاً - هو منشأ ومبدأ المسؤولية، والله سبحانه صرح بالأمر في هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾، وكما أن المسؤولية مترتبة على أهل الولايات عن رعاية مصالح الرعية، فكذلك المسؤولية مترتبة على الرعية عن طاعتهم كما في الآية الثانية.

وقد قرر سبحانه لتأكيد المسؤولية أنه سبحانه سميع بصير، لا يخفى عليه شيء من أمر ما أوجب من أداء الأمانات والحكم بالعدل.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، ٣٤١٢.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب من استرعي رعية فلم ينصح، رقم ٦٦٤٥، عن معقل بن يسار.

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب استحقات الوالي الغاش لرعيته النار، رقم ٢٠٧.

عائشة^(٣).

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء)^(٤).

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: (أيقظوا صواحب الحجج)^{(٥)(٦)}.

ومثل الآية السابقة آية سورة طه؛ قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾^(٧) [طه: ١٣٢].

ومن الولاية الخاصة ترشيد الولي لنفقة السفية من ماله، وقيامه على رعاية اليتيم وماله وأدائه له عند رشده.

قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا

^(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي صلى الله عليه وسلم في الليل وأن الوتر ركعة وأن الركعة صلاة صحيحة، رقم ١٢٣٤. عن عائشة رضي الله عنها.

^(٤) أخرجه أبو داود، كتاب التطوع، أبواب قيام الليل، باب قيام الليل، رقم ١١١٤. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/٦٥٧، رقم ٣٤٩٤.

^(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب العلم والعظة بالليل، رقم ١١٣. عن أم سلمة رضي الله عنها.

^(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/١٩٥.

وأما الولاية الخاصة فهي التي تتعلق بواجب رعاية مخصوصة، مثل رعاية الأولاد والأهل.

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

وفي هذه الآية الأمر بوقاية الإنسان نفسه وأهله النار، فأمر سبحانه المؤمنين وأوجب عليهم وقاية أنفسهم، وما يدخل في حكم النفس من الأولاد، ووقاية أهلهم بوصيتهم وتعليمهم الحلال والحرام وتجنبيهم المعاصي والآثام، وكذلك يخبر أهله بوقت الصلاة ووجوب الصيام ووجوب الفطر إذا وجب. قال مقاتل: ذلك حق عليه في نفسه وولده وأهله وعبيده وإمائه^(١).

وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام: (مروا أبناءكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع)^(٢).

وقد روى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوتر يقول: (قومي فأوترني يا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/١٩٥.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، رقم ٤١٧.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/٧٤٤، رقم ٤٠٢٦.

لَمْ تَقُولَا مَمْرُوقًا ﴿ [النساء: ٥].

وقال سبحانه: ﴿وَسْتَأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٠﴾ [البقرة:

[٢٢٠].

وقال عز من قائل: ﴿وَمَا آتَا الْيَتِيمَ أَموالَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا الْبَيْتَ بِالطَّبِيبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ [النساء: ٢].

والعمدة في المسؤولية عن الولايات الخاصة والعامة حديث عبد الله بن عمر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيته، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته). قال: وحسبت أن قد قال: (والرجل راع في مال أبيه ومسؤول عن رعيته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته) (١).

وعن أنس عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (إن الله سائل كل راع عما استرعاه أحفظ ذلك أم ضيع حتى يسأل الرجل على أهل بيته) (٢).

(١) سبق تخريجه قريباً.

(٢) أخرجه النسائي، كتاب عشرة النساء، أبواب الملاعبة، باب مسألة كل راع عما استرعى، رقم ٨٨٣٣.

ولأن الولاية العامة والخاصة تتعلق بمصالح المجتمع والأمة المسلمة والضعفاء، فإن الله سبحانه جعل مسؤوليتها في غاية العظمة، وجعل لمن يراها حق رعايتها الجزاء الأوفى.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سبعة يظلهم الله في ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه، وتفرقا عليه ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه) (٣).

وحذر أشد التحذير من عدم رعايتها وأداء ما على الإنسان فيها.

قال سبحانه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فحذر سبحانه من سبيلين يؤديان لتضييع الأمانة ورعاية الولاية وهما: الظلم الذي

وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٦٥، رقم ١٧٧٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، رقم ٦٢٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم ١٧١٨. عن أبي هريرة.

غير المسؤول عنه

أولاً: لا يسأل الرسل عن مصير الكافرين:

أرشد القرآن إلى أن الرسل لا يسألون عن مصير الكافرين.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ [البقرة: ١١٩].

والتوجيه في الآية للنبي صلى الله عليه وسلم، فبعد أن قص الله سبحانه وتعالى عليه قصص أقوام من اليهود والنصارى، وذكر ضلالتهم، وكفرهم بالله، وجرأتهم على أنبيائه، قال له: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿ بِالْحَقِّ بَشِيرًا ﴾ لمن آمن بك واتبعت ممن قصصت عليك أبناءه ومن لم أقصص عليك أبناءه، ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ لمن كفر بك وخالفك، فبلغ رسالتي، فإنما عليك البلاغ والإنذار، ولست مؤاخذاً بكفر من كفر بعد التبشير والإنذار، وليس عليك من أعماله - بعد إبلاغك إياه رسالتي - تبعة، ولا أنت مسئول عما فعل بعد ذلك، وكان من أهل الجحيم (٤).

ومثل ذلك قوله تعالى مرشداً نبيه محمداً

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٥٥٨/٢ - ٥٥٩٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٩٢/٢.

يؤدي إليه الميل والعدوان، والجهل بما فيها وما في ضدها. ومن تحذير السنة حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: (قلت: يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: (يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها) (١).

وقوله صلى الله عليه وسلم: (كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته) (٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ويلٌ للأمرء، وويلٌ للعرفاء، وويلٌ للأمناء، ليتمنين أقوامٌ يوم القيامة أن ذوابهم كانت معلقةً بالثريا، يدللون بين السماء والأرض، وأنهم لم يلوا عملاً) (٣).

وبهذا يتضح عظم شأن الولاية بوجه عام، وأنها من المسؤوليات الجسيمة العظيمة، إذ يترتب على التفريط والتعدي فيها أشد الندم وأعظم الخسران.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأمانة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، رقم ٣٤١٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال والمملوك وإثم من ضيعهم أو حبس نفقتهم، رقم ١٦٦٨. عن عبد الله بن عمرو.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٧٥/١٤، رقم ٨٦٢٧، والحاكم في المستدرک، كتاب الأحكام، رقم ٧٠٦٦. وصححه.

صلى الله عليه وسلم: ﴿أَمَّا مَنْ أَسْتَقْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبُ ﴿٧﴾﴾ [عبس: ٥ - ٧].

مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١﴾ [النحل: ٣٥].

وهذا سؤال استنكاري يفيد تقرير أن الرسل ليس عليهم إلا التبليغ البين الظاهر الذي يصل إلى القلوب، ولا يبقى لأحد على الله حجة - كما سبق بيانه- فإذا بلغتهم الرسل أمر ربهم ونهيه، واحتجوا عليهم بالقدر، فليس للرسول من الأمر شيء، وحسابهم على الله عز وجل، وأما الهداية فهي إلى الله سبحانه وتعالى^(١).

والمصير تبع للهداية، وبما أنها ليست إليهم، فيلزم أنهم لا يسألون عنها، كما وضحت الآية التالية.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْفِرِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦].

ومنه قوله عز من قائل: ﴿وَإِنْ تَكْذِبُوا فَعُدَّ كَذِبَ أُمَّرٍ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ [العنكبوت: ١٨].

وهذه الآية كما تحتمل أن تكون من كلام إبراهيم عليه السلام لتقرير أن واجب الرسول - أي رسول - هو إبلاغ ما أرسل به بيئاً واضحاً. كذلك فإنها تحتمل أن يكون

أي: لست مسؤولاً عن هدايته ولا ماله. وكما صرح القرآن بأن الرسل لا يسألون عن مصير الكافرين، فقد بين هذا المعنى من طريق اللزوم، حيث قصر مسؤولية الرسل على البلاغ المبين في آيات كثيرة، وهو التبليغ الواضح؛ منها قوله سبحانه: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المائدة: ٩٩].

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾ [النحل: ٨٢].

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَّغُ ﴿٤٨﴾﴾ [الشورى: ٤٨].

وقوله سبحانه: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٢٠﴾﴾ [التغابن: ١٢٠].

وقد سبق بيان معناها.

وهذا ليس حصراً على رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، بل ذلك مطرد في جميع الرسل عليهم السلام، والقرآن ذاهر بالأدلة على ذلك؛ منها قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَتَرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا بَدَلْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/١٠٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٤٠.

صراحة ولزوماً. ومن ذلك: التصريح بعدم سؤال الفرق بعضها عن أعمال بعض.

قال تعالى: ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٥].

وفي سياق هذه الآية يرشد ربنا سبحانه نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يقول للمشركين الذين يخاطبهم: أحد فريقنا على هدى والآخر على ضلال، فلسنا مهتدين جميعاً ولسنا على ضلال كلنا، وأنتم غير مؤاخذين بما نعمل، ولا تسألون عما أجرمنا نحن من جرم إن كان عملنا جرماً، ولا نسأل نحن عما تعملون أنتم من عمل^(٢).

وفي الآية إرشاد للنبي محمد صلى الله عليه وسلم لأحكام أساليب الدعوة، بأن يتجنب الكلام الذي يمكن أن يصد ويحجز عن الهدى بما يورث من المعاندة والاستكبار، وأن يعمل في دعوته بما يفتح المجال للتفكير لا ردود الأفعال.

وفيه معنى التبرؤ منهم ومن عملهم، أي: لستم منا ولا نحن منكم، بل ندعوكم إلى الله وإلى توحيده وإفراد العبادة له، فإن أجبتهم فأنتم منا ونحن منكم، وإن كذبتهم فنحن بريئون منكم وأنتم بريئون منا، وإرشاده سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إلى هذا القول دليل على تقريره.

(٢) جامع البيان، الطبري، ٢٠/٤٠٥.

الكلام متوجهاً إلى كفار قريش على سبيل الالتفات فيكون المقصود بالرسول: محمد صلى الله عليه وسلم، ويكون المقصود: أن مقام الرسالة لا يقتضي إلا التبليغ الواضح^(١).

ومنه قوله تعالى على لسان الثلاثة المرسلون في معرض ضرب المثل لمشركي قريش بأصحاب القرية: ﴿قَالُوا رَبَّنَا بَعَلَّغْنَا إِلَيْنَا لِكَلِمَتِكَ لَمْ تَسْأَلْنَا لِمَ مَا عَلَّمْنَا إِلَّا مَا بَلَغَ الْوَيْبِطُ﴾ [يس: ١٦-١٧].

فهذا بيان واضح بأن الرسل لا يسألون عن مصير الكافرين، إذ أن مهمتهم تقتصر على البلاغ المبين، وأن الهداية من الله سبحانه، وأن حساب الأمم عليه سبحانه. وهو إرشاد عظيم للداعية إلى الله أن لا ينشغل بالنتائج، بل يبذل وسعه في التبليغ الواضح، وتوجيه له بالأثر يتأثر بباطل أهل الزيغ والضلال من الكفار والفسقة والطغاة، ولا يلين لأهوائهم طمعاً في استدراجهم إلى الحق، بل يصدع بما يؤمر ويعرض عن المشركين.

ثانياً: لا يسأل الإنسان عن عمل غيره:

رَسَّخَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ فِي آيَاتٍ عَدِيدَةٍ قَاعِدَةٌ هَامَةٌ؛ وهي: أن الإنسان غير مسؤول عن عمل غيره، ولا هو مؤاخذ به، ما لم يكن من نتاج عمله هو. وقد دلت على هذا المعنى

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٠/٢٢٧.

كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] (١).

كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَأَزْرَةٌ وَزَرٌّ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ومما يدل على بعد نسخ آية سبأ المذكورة بآية السيف كما زعم بعض المفسرين (٢) أن البناء للمجهول في الفعل المضارع يدل على أن السائل طرف خارج الفريقين، ودلالة المضارعة في السياق على الحال والاستقبال، كما أن الآية التالية لها تتحدث عن الجمع والحكم؛ حيث يتبين المهتدي من الضال وهو فيما يستقبل من أمر الآخرة.

قال سبحانه: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦].

وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال عز وجل: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي وَعَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧].

وقال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَلْبَسْنَا بِمَا فِي صُحُفٍ مُّوسَىٰ ۖ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ۖ أَلَا نُزِرُ وَأَزْرَةٌ وَزَرٌّ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٦-٣٨].

ومعنى ﴿أَلَا نُزِرُ وَأَزْرَةٌ وَزَرٌّ أُخْرَىٰ﴾ أنه لا يؤاخذ أحد بذنوب غيره (٤).

وفيها تصريح بأن كل نفس قدمت على الله يوم القيامة، وإنما تسأل عما كسبت وأسلفت، دون ما أسلف غيرها (٣).

التصريح بأنه لا يؤاخذ أحد بذنوب غيره: وهذا في القرآن كثير.

قال سبحانه: ﴿قُلْ أَغْنَىٰ اللَّهُ أَيْدِي رِبَاً وَهُوَ رَبُّ﴾

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٥١٧/٦.
 (٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٩٩/١٤.
 (٣) جامع البيان، الطبري، ١٢٩/٣.
 (٤) جامع البيان، الطبري، ٥٤٣/٢٢.
 (٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤٦٥/٧.

[الإسراء: ١٥].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩].

أي: كما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه^(٢).

قال الحسين بن الفضل بأن هذا من طريق العدل، أما من باب الفضل فجائز أن يزيده الله ما شاء^(٣).

وقد دل على هذا المعنى القرآن والسنة. قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِنَا إِنَّمَا كَسَبَتْ يَدَهُمْ إِنَّمَا كَسَبَتْ يَدَهُمْ﴾ [الطور: ٢١].

وثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جواز الحج عن الغير، وأفادت النصوص والإجماع وصول الدعاء والصدقة للغير. على أنه ينبغي التنبيه إلى أن باب القربات يقتصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء^(٤).

ومن عمل الغير ما يلحق بالإنسان إن كان سبباً فيه، أو داعياً إليه، أو راضياً وراغباً فيه، فيلحق به أجره إن كان صالحاً، ووزره إن كان سيئاً، لأنه في حكم عمله هو. والأدلة

(٢) جامع البيان، الطبري، ٤٨٧/٢١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/٤٦٥.

(٤) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الملا علي القاري، ٣/١٢٢٨.

كما هو ظاهر في قوله سبحانه: ﴿وَأَنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِيلًا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وعدم تحمل أحد ذنب غيره يدل على عدم مسؤوليته عن عمله.

الإشارة إلى أن كسب الإنسان متعلق بعمله هو:

أن آيات عديدة من القرآن الكريم تشير إلى أن عمل الإنسان حسنه وسيئه مقصور عليه هو لا يتعدى لغيره إلا ما كان فضلاً من الله سبحانه.

منها قوله سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: ٤٦].

ومعناها: أن من عمل بطاعة الله في هذه الدنيا، فآتمر لأمره، وانتهى عما نهاه عنه فلنفسه عمل ذلك الصالح من العمل الذي مآله الجنة، ومن عمل بمعاصي الله فيها، فعلى نفسه جنى، لأنه أكسبها بذلك سخط الله، والعقاب الأليم. وما الله سبحانه بحامل عقوبة ذنب مذنب على غير مكتسبه، بل لا يعاقب أحداً إلا على جرمه الذي اكتسبه في الدنيا، أو على سبب استحققه به منه^(١).

ونظيره قوله سبحانه: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَأِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/٤٦٥.

ومثله قوله سبحانه: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [النساء: ٨٥].

ومنها قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَا مَا يَرِثُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

ومنها قوله سبحانه: ﴿مَنْ آجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

ومنها الحديث: قال صلى الله عليه وسلم: (لا تقتل نفساً ظالماً إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها؛ لأنه أول من سن القتل)^(٤).

ومنها قوله صلوات ربي وسلامه عليه: (إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد

على ذلك كثيرة؛ منها: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)^(١).

فهذه الثلاثة في الحقيقة هي من سعيه وكده وعمله، كما جاء في الحديث: (إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وولده من كسبه)^(٢).

والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هي من آثار عمله ووقفه. والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضا من سعيه وعمله.

ومنها ما ثبت في الصحيح: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا)^(٣).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد موته، رقم، ٣٠٩٢.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الإجارة، باب الرجل يأكل من مال ولده، رقم ٣٠٦٤، وابن ماجه في سننه، كتاب التجارات، باب الحث على المكاسب، رقم ٢١٢٨، عن عائشة رضي الله عنها وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/٤٤٠، رقم ٢٢٠٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، رقم ٤٨٣٧. عن أبي هريرة رضي

الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه، رقم ٣١٠٨، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربيين والقصاص والديات، باب بيان أثم من سن القتل، رقم ٣١٨٤.

أثر فقه المسؤولية على سلوك العبد

الفقه هو الفهم الدقيق، والعبد الذي يفقه المسؤولية على وجهها الصحيح يتأثر بذلك في سلوكه تأثراً بليغاً، حيث يعرف السائل والمسؤول عنه، ويعرف مبدأ المسؤولية ومآلها، ويعرف كيفية التبع والمحاسبة، ويعرف فحوى السؤال ووقته. فمن عرف ذلك كله أيس من النجاة إلا بسلوك سبيل الحق، وتخلق بالتقوى والصدق، واستعد ليوم الحساب، وعمل ليوم المآب، فجاء سلوكه مستقيماً متوافقاً مع الشريعة ظاهراً وباطناً، وأتاب واستجاب وأسلم لله.

إن معرفة السائل، وهو الله سبحانه، تورث الإيمان به ربّاً، كما تورث محبته، ورجاءه، والخوف منه سبحانه؛ محبته سبحانه لجليل صفاته، وعظيم إنعامه وفضله، ورجاءه لعظيم رحمته ومنتته وآلائه، وقبوله التوبة والشفاعة، وعفوه عن السيئات، ومضاعفته للحسنات، والخوف منه سبحانه لعظيم عقابه وشديد غضبه، وأليم عذابه وبلغ انتقامه. وهذا يجعل طاعة أوامره والانتهاز عن نواهيه أمثالاً أولى ما يتقرب به العبد إليه من القربات، وتلك هي التقوى، فيأتي سلوك العبد مستقيماً متسقاً مع منظومة السلوك الإسلامي المستفادة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه

وسلم، ولكن من رضي وتابع، قالوا: يا رسول الله، ألا نقاتلهم، قال: لا ما صلوا^(١).

خلاصة القول: إن الإنسان لا يسأل عن عمل غيره ولا يؤاخذ بسيئه، إلا ما كان هو السبب فيه، أو الداعي إليه، أو كان راضياً عنه راغباً فيه بأن يعمل مثله؛ وذلك في الحقيقة من جملة عمله هو؛ لأنها إما آثار عمل جوارحه، أو هي أعمال قلبه. فلا يكتب عليه إلا ما سعى عدلاً. ومن فضل الله على عبده المؤمن أنه تنفعه بعض أعمال غيره من المؤمنين كالدعاء - وهو شفاعة -، والصدقة والحج عنه.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع، رقم ٣٤٥٢.

العمل والإنابة، والإشفاق يدفع لامتنال أوامر الله سبحانه، والاستقامة على الشريعة، وأداء المسؤوليات على أفضل الوجوه.

إن فقه المسؤولية إذاً يؤثر إيجاباً على سلوك العبد تأثيراً بليغاً، إذ يؤثر على التصورات، والدوافع، وطريقة التفكير، والأخلاق والصفات والعادات، ومنهج تقييم التصرفات؛ فيهديه للإيمان، ويوقظ في نفسه الإحسان، ويدفعه للعمل، ويحمّله على الإلتقان، ويدعوه للصدق والأمانة ومكارم الأخلاق، وطيب الخلال، ويلزمه الاستقامة على الشريعة والاستجابة لله ولرسوله، وأداء الحقوق والواجبات على وجهها، إيماناً واحتساباً.

موضوعات ذات صلة:

الأمانة، الجزاء، الحساب، العقاب

حَقَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ [الأعراف: ٨-٩].

ومن فقه أنه مسؤول يقيناً غلب عليه الإشفاق، ومن غلب عليه الإشفاق في الدنيا فهو خائف من عذاب الله راج رحمة الله محبٌ لله فإنه يعمل بطاعة الله، ويمثل أمره، ويؤدي ما عليه من المسؤولية، وعن أمثال هؤلاء.

قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿١٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّنَا عُذَابَ السَّمُورِ ﴿١٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ [الطور: ٢٥-٢٨].

ومن أيقن بالسؤال وغلب عليه الإشفاق في الآخرة حين يرى كتابه وكسبه هلك.

قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُرْوِلُنَّا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال سبحانه: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٣﴾ [الشورى: ٢٢].

ففقه المسؤولية يورث الإشفاق في وقت